

حكاية أنه ما- سيرة جنرال مغربي في حرب فيتنام

الاثنين 2 كانون الأول (ديسمبر) 2013

بقلم : عبد الله ساعف

نقدم لقراءة المناضلة- صفحة من تاريخ النضال العمالي بالمغرب، في شخص محمد بن عمر لحرش، كما عرضها عبد الله ساعف . إنها كتاب: حكاية أنه ما- سيرة جنرال مغربي في حرب فيتنام .

و نحيل القارئ على قراءة في هذا الكتاب صدرت بجريدة المناضلة- عدد 27 بعنوان:

من صفحات النضال الماركسي الأممي ... المغرب/ فيتنام : قراءة في كتاب حكاية انه ما – سيرة جنرال مغربي في فيتنام.

وتوجد ضمن المرفقات

النسخ الإلكتروني : جريدة المناضلة-

أود أن أعبّر هنا عن كبير امتناني للفقيه ألبير عياش ولنصاحه الصارمة وللاهتمام المتواصل الذي أبداه هذا العمل منذ البداية إلى النهاية .

ولست أدري كيف أوفى السيدة كامليا لحرش، زوجة بن عمر، بطل هذا الكتاب حقها من الشكر للمعلومات الحاسمة والذكريات، والصور، والوثائق، والمراسلات التي أمدتني بها، وكذا لقراءتها النقدية لهذا العمل خلال جميع مراحلها .

تشكراتي أيضا لجورج بوداريل، فأهم ما في هذا العمل، خصوصا في مرحلته الخاصة بالفتنات مدين لسخاء المتقف فيه. فقد أطلعني بكل أريحية على مكتبته ووثائقه، وأرشيفاته، ومراسلاته الخاصة، كما أعبّر عن عرفاني بالجميل للعديد من قدماء الجنود المغاربة في الهند الصينية الذين ساعدوني على التقدم في هذا البحث .

تشكراتي كذلك لعلي يعته، عبد الله العياشي، عبد السلام بورقية، الفقيه محمد البصري الذين واقتهم المنية منذ إعداد الطبعة الفرنسية الأولى لهذا الكتاب، أشكر كذلك أبراهام السرفاتي، أحمد بن جلون، رشيد سكيرج، عبد الله رشد، عبد الرحمان زغلول، جوبنديلاك، مصطفى اليزناسي، والهاشمي الطود، كما أشكر روني كليسو وميشيل زيراري لتفضلهما بقراءة النص النهائي لهذا الكتيب، ومحمد زروال لتحمله الكثير من الإضافات والحذف وإعادة الكتابة والصياغة التي قمت بها في النص الفرنسي .

أما بخصوص النص العربي وأنا أعيد نشر "حكاية أنه ما" مترجمة إلى العربية وهو اللقب الفيتنامي للمناضل اليساري محمد بن عمر لحرش والذي نشط تحت أكثر من إسم حركي في الفيتنام وخارجها، أود أن أتوجه بالشكر والعرفان لمحمد مستعد لمجهوداته في نقل الصيغة الأولى من الفرنسية إلى العربية، كما أتوجه بالشكر إلى كل من إدريس الخوري على مراجعته النص النهائي وإلى توفيق بوشرين وطارق جبريل وعبد الإله زغلول ومصطفى الفن وكمال الرايس لمساهمة كل واحد فيهم في وصول هذا النص إلى يد القراء .

قلق حقيقي كان يبتاني وأنا أمشي على طول شارع "دبرين" في الزاوية التي يشكلها مع شارع "جوردان" بحثا عن المسكن الباريسي لألبير عياش، الاختصاصي في التاريخ الاجتماعي للمغرب خلال الفترة الاستعمارية. فمنذ فترة كانت ملامح شخصية استثنائية تشغل بالي : إنه محمد بن عمر لحرش، شخصية فريدة من نوعها في الوسط السياسي والنقابي المغربي كما كانت تؤكد على ذلك الإشارة الموجزة التي نشرها ذلك الرجل العالم والذي كنت على موعد معه بعد لحظات (1). باطلاعى على العناصر الأولى لهذه البيوغرافيا، كان ابن عمر قد أخذ أبعادا أسطورية بالنسبة إلي، فلنتصور إذن: مناضل سابق في الحزب الشيوعي المغربي، عضو في لجنته المركزية، بعث في مهمة ثورية بالفتنات بطلب من هوشى منه، وأصبح فيما بعد حسب ما يقال، "جنرالاً" في صفوف القوات الثورية للفييت منه. وبعد عودته إلى المغرب في بداية الستينات، اختفى في ظروف غامضة. كان من الصعب علي أن أفهم أن شخصية من

هذا القبيل لم تثر انتباه أحد وأن تتم بالكاد الإشارة إليها، بصورة عابرة في الصحافة المغربية .

لقد كان المسار الاستثنائي لهذا الرجل مدهشا جدا حتى في خطوطه الكبرى. كنت أنتظر بصورة مسبقة الشيء الكثير من هذا المسار. هل كنت أنتظر منه أكثر من اللازم؟ لكن ألبير عياش، وبأسلوب المؤرخ للصرعات الاجتماعية القديمة كان بإمكانه أن يضع حدا، في بضع ثوان، لأوهامي وذلك بإخراجه من قمطره وبتواضع، جاذة صغيرة وبسيطة ودقيقة إلى حد التحجر، كما في عاداته، وخاطبني قائلا: "ما قولك إذن؟ لقد كنت مخطئا بانتظار كل هذا من شخصيتك هاته، فأنت ترى أنها لم تكن إلا هذا..". كنت أستعد لخيبة أمل محتملة، وأنا أقوم بتركيب الرقم السري لباب العمارة، ثم وأنا أدخل إلى المصعد كنت أعمل جاهدا على إعادة استحضر شذرات المعلومات التي جمعتها حتى الآن عن بن عمر. هل كان هو فعلا الرجل الذي عينه الحزب تلبية "للطلب الشخصي" لهوشي منه الذي التمس من قيادة الحزب الشيوعي المغربي إرسال إطار حزبي إلى الفيتنام تكون مهمته تأطير الجنود المغاربة الفارين من الجيش الاستعماري الفرنسي أو المعتقلين من طرف "الفيت منه"، والقيام بعملية استقطاب للجنود المغاربة الذين كانوا لا يزالون في صفوف الجيش الفرنسي؟

من كان ذلك الرجل ذو العضوية الثابتة في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المغربي الذي توجه إلى الفيتنام في نهاية 1945، بعد مغادرته المغرب سرا؟ ما هي دلالة مسار ذلك الذي سيشارك، على رأس وحدة للمتطوعين المغاربة بالفيتنام، في انتصار "ديان بيان فو" بل والذي قد يكون شارك شخصيا في إلقاء القبض على الجنرال ذي كاسطريس؟ من كان ذلك الخريبي الغامض الذي ذهب الفيتناميون إلى درجة ترفيته جنرا لا في جيش الفيت منه؟

الشهادات العديدة للأشخاص الذين عرفوه تصفه بالشخصية البسيطة ذات الأفق البسيط والقدرات الفكرية والأساسية المحدودة جدا، شهادات أخرى لأشخاص لم يعرفوه سوى في آخر أيامه تصفه بالشخص المدمن على الخمر، يتكلم بلهجة سوقية، بل فاحشة ويعيش مسبقا حالة انحطاط تام، وهو ما جعلهم يشكون في أن مثل هذا الرجل كان له ماض سياسي أو عسكري معروف بدرجة معينة. في آخر أيامه كان البعض يسخرون منه عند مروره أمامهم: "أه، أنظروا ها هو المارشال"...

لكن الشخصية عاشت ووجدت بالفعل، فكلما كنت أتقدم في التنقيب في الصحافة العمالية الشيوعية لفترة الاستعمار (مثل جرائد "إسبور"، "لاكسيون سانديكال"...) إلا وكانت ملامح الشخصية تتحدد أكثر. لم يعد الأمر يتعلق فقط بإشارات بسيطة ومتناثرة، وإنما بمسار، بحياة لها دلالتها. حياة حافلة بالنضالات والمحن الحقيقية واللحظات الحاسمة. آثار مساره تكشف عن تكوين ماركسي قوي وعن ملامح مناضل كبير. وشيئا فشيئا ومع تقدم تنقبي في الجرائد اكتشفته وهو يتسلق هرم الجهاز الحزبي. تم اعتقاله عدة مرات. وكان يأخذ الكلمة في المناسبات الكبرى لحياة التنظيم الشيوعي. في المنشورات الشيوعية لتلك المرحلة نصوص تحمل توقيع محمد بن عمر، كنت أفحص غير مصدق عيني، متسائلا، محققا، مطابقا بين المعلومات. لقد كان الأمر يتعلق به فعلا، تاريخ حياته كان يتشابه مع تاريخ حزبه ومع تاريخ نخبة سياسية معينة. أحداث حياته كانت تبدو أحيانا مميزة، لها طابع فردي قوي وغير قابلة للإختزال وأحيانا أخرى غير شخصية مجرد دوايب ميكانيكية أكثر اتساعا أو مجرد أجزاء لأجهزة مجهولة تتجاوزها.

كانت جذاذات ألبير عياش صامته نسبيا وتقنية جدا أمام المشروبات المرطبة التي كانت زوجته تقدمها لي بسخاء. لقد كان المؤرخ يعترف بتواضع و بحذر علمي جدا بمحدودية المعلومات التي جمعها حتى الآن: فالمعطيات التي كانت تحتويها الجذاذات حول حياة وتجربة ومغامرات بن عمر، والتي تم تجميعها بعد العديد من التحقيقات، وعملية فك رموز الأرشيفات التي أمكن بلوغها، والمطابقة بين المعلومات، وتعبئة الإمكانات العلمية في مجال المعرفة الاجتماعية، يكل ذلك يظل عبارة عن معطيات أجنبية. فصوت ألبير عياش كان يبدو لي محايدا بشكل غريب، باردا ومتحفظا وهو يقرأ علي إشارات الملخصة عن سيرة محمد بن عمر لحرش "ظهر لأول مرة كعضو في المكتب النقابي لعمال سد بين الويدان، ثم كسكرتير للاتحاد النقابي المحلي بقصبة تادلة حيث اجتهد في تنظيم العمال الفلاحين، ألقى عليه القبض وسجن. ثم شغل فيما بعد منصب سكرتير الاتحاد النقابي بالدار البيضاء حيث أصبحت له مسؤوليات سياسية: وهكذا عمل أولا سكرتيرا لفرع الحزب الشيوعي بالبيضاء، ثم أصبح عضوا في لجنته المركزية خلال المؤتمر الثاني المنعقد في أبريل 1949.

غادر المغرب ليحارب في صفوف قوات "الفيت منه" حيث أصبح يعرف باسم الجنرال عمر، أما الجنود المغاربة الذين كان قائدهم فكانوا يعرفونه باسم الجنرال معروف. بعد عودته إلى الغرب سافر إلى دول أوروبا الشرقية (2).

استثبطت غضبا للصرامة الاحترافية التي فرضها ألبير عياش على نفسه مع شخصية لا يمكن برأيي إلا أن تلهب

المتخيل. فالمعلومات التي كان يقدمها لي كنت أعرفها مسبقا، فكنت أؤاخذة لعدم استطاعته إفادتي بأكثر منها. وبما أنني رفضت تصديق ذلك، فإنني كثيرا ما أعدت الكرة وخلال فترة طويلة، وذلك خلال محادثات جديدة رأسا لرأس، أوعن طريق رسائل ملحة، بل طالبت به بأن يسأل لي الشيوعيين الفرنسيين السابقين الذين مازالوا على قيد الحياة فكان يجيبني: "لقد سألت السيد "برودم" (3) إلا أنه لا يذكر أي شيء. أندري لور (4) وقال لي ما سبق أن أخبرتك به، استجوبت أيضا إدمون عمران المالح الذي كان قد توصل مؤخرا برسالتك. أعتقد أنك بجوابه الذي يخبرك فيه بما يعرفه، ولن يقول أكثر مما قلته لك". (5)

كان ألبير عياش قد أفادني، في الواقع، بما كان من الممكن معرفته حسب ما كانت قد توصلت إليه التحقيقات آنذاك. أما رسالة عمران المالح فقد أتوصل بها، لكنه أكد لي بدوره خلال لقاء بالصدفة، حدود معلوماته عن لحرش. عديدة هي الرسائل التي بعثتها إلى كل الجهات، بما فيها الفيتنام، والتي ظلت دون جواب، كثيرة أيضا هي الوعود التي أخلفت موافاتي لاحقا، بتوضيحات ووثائق، أو التهرب في آخر لحظة من اللقاءات ومن الإدلاء لي باعتراقات والكشف عن معلومات. والغريب أنني كثيرا ما سأحس عن خطأ أو عن صواب، بأن الشهود الذين كنت أخطبهم ممن عايشوا بن عمر، كانوا يكشفون أقل مما كانوا يعرفونه في الحقيقة عن حياته، لم أكن أفهم ومازلت لا أفهم أسباب ذلك.

كنت مستاء لعدم كفاية الشهادات ولنقص المعلومات وندرة التفاصيل، إلا أنني كنت مرتاحا في كل مرة كانت الشخصية تحافظ فيها على ملامحها المهيبة والواعدة. دون وعي، كنت أقصي الجوانب السلبية في جذاذة أردتها أن تبقى هامشية.

هل سبق لنا أن حلمنا بقاء مغربي شارك في الثورة الفيتنامية وفي صفوفها بالذات؟ هل كان باستطاعتنا أن نعي فيه الكفاية الدلالة التي تكتسبها حياة هذا المواطن الخارق للعادة الذي شارك في إحدى أكثر دروس الفعالية إدهاشا لمعركة التحرير الوطني المترابطة مع التغيير الاجتماعي؟ كيف استطاع مسار هذا الرجل أن يصمد متحديا أكثر الأطروحات تشاؤما حول عدم تغيير وجمود وثبات البنيات التي تميز، ربما، مجتمعا؟

قررت أن أتبع خطواته عن قرب، أن أقتفي آثاره، أن أعيد تركيب مراحل حياته وأفهم ملامح شخصيته: في المغرب بلد التوازنات العريفة، بلد اللف (6) والأنساب والعصبية القبلية... لم يكن من الممكن لحياة محمد بن عمر لحرش، الرفيق الجنرال والمناضل الشيوعي الذي ذاق فرحة الانتصارات الثورية الأكثر مثالية في عصرنا الحالي، أن تنتج اللامبالاة.

في يوليوز 1984 وبمناسبة انعقاد ندوة دولية ببغداد حول السلام بالخليج، التقيت دون جدوى المسؤول عن العلاقات الخارجية بالحزب الشيوعي الفيتنامي. ثم كررت محاولاتي متصلا بالعديد من المسؤولين الرسميين في الجمهورية الديمقراطية الشعبية لفيتنام الذين كانت لهم علاقات مع بن عمر، لكن دون نتيجة كذلك. فالفتناميون الجدد لمرحلة ما بعد الحروب، ولمرحلة الندوات وفي زمن إعادة البناء والنزاعات مع الصين والقضية الكامبودية، كانوا منشغلين بما هو أهم من القيام بأبحاث لحسابي حول مغربي غامض. إلى جانب ذلك، لم يكن من البديهي أنهم لم يعودوا من الآن فصادا مدينين بأي شيء لأي أحد؟

كان من المتعذر الوصول إلى الأرشيف بسبب الأجال القانونية وحساسية الموضوع وامتداداته الحالية. سواء في جوانبه المغربية أو الفيتنامية. بعض الوثائق كانت تبدو بكل بساطة مفقودة الآثار الرسمية لابن عمر التلميذ ظلت بعيدة عن متناولني إلى آخر المطاف. كما أن تلك المتعلقة بمروره العابر بالبريد والمواصلات أو بالمكتب الشريف للفوسفاط تبدو إلى اليوم صعبة المنال. لم يكن من الممكن للتحقيق أن يكون منهجيا ومركبا وأن يتم التحكم فيه وفق الأصول. فالخطوط المكسورة لملاح الشخصية كانت تضيع تارة وسط اختلاط الشهادات غير الكافية أو المتناقضة وكثير من الصمت والوثائق الناقصة، لكن عناصر أخبار جديدة كانت تصل بشكل متفرق ومتقطع: كان علي أن أقرر في أغلب الأحيان أن أترك الأمر لصدفة الاكتشافات واللقاءات والقراءات... "لم يسبق لي أن سمعت عن السيد لحرش، وهو ما لا يدل على عدم أهميته وإنما على جهلي. أرجو لك عملا موقفا". هكذا أجاب دون تأخر عن طلبي للمعلومات، جون لاكوتور المطلع على أحوال كل من المغرب و الفيتنام خلال الخمسينات (7). كانت حياة بن عمر تقع في قلب ما يسميه هذا الكتاب ب"التاريخ المباشر"، ترى كيف كانت ظروف هذا التاريخ الأني في فهمه والمتزامن في إنتاجه، وذلك دون وساطة، ودون أن يكون تماما مصدر تلك الشروط دائرة الفاعلين أنفسهم ولكن جوارهم المباشر؟ (8) كيف يمكن تبليغ وتلقي كلام أولئك الذين كانوا فاعلين، ووضع التاريخ انطلاقا من الأرشيفات الحية التي يجسدها هؤلاء الأشخاص الذين تقاطع مصيرهم مع مصير بن عمر؟

كان تحقيقي حول هذا الأخير قد ارتضى هذا التميرين في التاريخ وهو مزيج من الصحافة والبحث التاريخي، ولكن كذلك من البناء الشخصي فوق فترة قريبة العهد أكثر من اللازم، تمرين يطبع فيه الزمن الأحداث ببطء ذي دلالة بحيث يتأرجح بين إرادة معرفة الحقيقة والرغبة في حقيقة وجود شخصية مثل هاته .

لم يكن الأستاذ جرمان عياش عضو الحزب الشيوعي المغربي وصاحب مقالات منشورة في نفس أعداد مجلة "إسبوار" (الأمل) التي كتب فيها بن عمر، قد سمع به هو الآخر (9)، تعرف عليه بالتأكد في إحدى الصور التي أريتها له لكنه أكد لي أنه لم يكن هناك شيء يثير انتباهه إليه خلال تلك المرحلة. إضافة إلى ذلك، ذكرني بأنه كان هو نفسه قد أبعد عن المغرب على يد الجنرال جوان سنة 1950 ولم يعد إليه إلا في سنة 1956. والحال أن هذه هي بالذات الفترة التي كان قد تم فيها اختيار بن عمر لمهمته الفتنامية، فكان علي بالضرورة أن أستنتج من جهتي بأنه مهما كانت كثافة الصداقات التي نعثر عليها داخل تنظيم سياسي مثل الحزب الشيوعي خلال تلك السنوات من الأربعينيات، فإن بعض المناضلين قد يمضون عمرهم جنبا إلى جنب وهم يجهلون بعضهم البعض. فالعزلة التي يعيشها الإطار الحزبي لا يمكن التخفيف من حدتها. إلا أن أبراهام السرفاتي كان يتذكر: توصلت برسالة من السجن الذي كان معتقلا فيه، رسالة دقيقة، جازمة وغنية بالمعلومات والفرضيات حول حياة بن عمر (10). يظل المؤرخون الفرنسيون لحرب الفيتنام الأولى في مجملهم، غير مباليين بشكل يثير الاستغراب بتفاصيل تضحيات ومعاناة وعذاب واعتقالات و فرار الوحدات المغاربية بالجيش الاستعماري الفرنسي. إنهم لا يكتشفونهم سوى كتفاصيل ثانوية: عناصر احتياطية كانت في ساحة المعركة وعناصر احتياطية كانت في ساحة المعركة وعناصر احتياطية في فهم هذه الحلقة من التاريخ الاستعماري. فيظهرون بالكاد في روايات الحرب. لا يكتشفهم المؤرخون على العموم، إلا كتفاصيل مكملة لمعركة ما، أو كعناصر مساعدة في مناورة، أو مواد لنوادير الحرب. وأحيانا يتعلق الأمر بالنسبة للمؤلفين الفرنسيين، عسكريين أو غيرهم على اعتبار هؤلاء، عند سرد مختلف تطورات الحرب الفرنسية في الهند الصينية، كحقات ضعيفة محتملة في الحملة العسكرية الفرنسية بالشرق الأقصى... بيد أن الشهادات كانت تصل تباعا، كنت أراكم حواراتي مع أشخاص مقربين من بن عمر، ومع مسؤولين شيوعيين مغاربة كبار مثل علي يعنة وعبد السلام بورقية ومحمد فرحات.. وأسجل عند إعادة دراسة الآثار المكتوبة لهذه العشرات من الحوارات، أن المعطيات كانت في مجملها تلتقي لتؤكد على البعد الاستثنائي لهذه الشخصية .

على أن المرحلة الفيتنامية في مسارها كانت غامضة، وفي 1987 جمعت ندوة كبيرة بمدينة ميلانو العديد من الباحثين: وضعتني الصدفة قرب "كولوتي بينشل" وهو مؤرخ مختص في تاريخ آسيا وإفريقيا. كلمته عن قصة بن عمر فنصحتني بالاتصال بشخص يدعى "جورج بوداريل" كان قد انضم سابقا إلى صفوف "الفيت من" (القوات الفيتنامية المقاتلة من أجل الاستقلال عن فرنسا) وتم العفو عنه مع نهاية الحرب، أعطاني عنوانه في باريس فكاتبتته. في البداية لم يجيني، إلا أنني كنت في عمل بجامعته خلال ندوة من تنظيم أحد أصدقائه وبفضل هذا الأخير نجحت في النهاية في الالتقاء به. قابلت بوداريل عدة مرات. إنسان محبوب وخدم دلني على العديد من المؤلفات التي ساعدتني في بحثي. لكن هذا الرجل كان يبدي سخاء كبيرا. كمتقف لم يكن يتخلى عن شيء من العمومية في كلامه، وعن الحذر في نبرته وعن نزعة أكاديمية محضة في علاقته بالأمر الفتنامية. وقد فهمت بمرور الوقت أنه كان دائما يتأكد من أنه غير مطارد. كان يضرب لي مواعيد غريبة: "توقف عند ميترو" "لاريوبليك" على الرصيف الموجود في اتجاه باب "دي ليلا" وسأكون في الجنب الآخر من الرصيف... نفس الاحتياطات الكثيرة عند اختياره للمقاهي التي كنا نجلس فيها لتبادل الحديث. عندما كنت أطلب منه بعض التفاصيل أو أسماء أماكن أو أشخاصا أو أحداثا دقيقة لها صلة من بعيد أو من قريب بابن عمر، كان كلامه يتحول إلى نوع من التهرب. شهورا بعد ذلك، وذات شهر مارس من سنة 1991 توصلت من بوداريل بمراسلة ضخمة: نسخ، مقالات بصحف ومجلات، نصوص متنوعة، مناشير، نداءات للتضامن أثارها الحادث الذي وجد نفسه في بؤرته بمناسبة ندوة بمجلس الشيوخ الفرنسي (11). كان بوداريل يعطي شعورا بأنه يفهمني ما يلي: "الآن فهمت لماذا كنت أُلزم الصمت" وقد عرفت لاحقا، بالأدلة الثابتة أنه كان قد توصل بالعديد من الرسائل المجهولة تهدده بالقتل .

بفصل بوداريل تمكنت في النهاية من الالتقاء بكاميليا الحرش، زوجة بن عمر لحرش. وقد ساعدني على التغلب على تحفظها، فاتفقنا على الالتقاء نحن الثلاثة بمكتبه "سود إست آزي" بزقة الكاردينال لوموان (في باريس). كانت تبدي الكثير من الحذر، عندما التقينا مرة أخرى فيما بعد. ولكنها كانت تبدي أيضا لطفًا وعلاقة مفتوحة بشكل واسع على الصداقة، كنت أتفهم الصمت المتواصل لكاميليا: كانت تتعرض بالكاد لبعض الجوانب الحساسة في الحياة الماضية لابن عمر، كانت تبذل جهدها للحفاظ على صورة زوجها حيث كانت تخفف من مشواره الثوري في آخر أيامه وتضع سورا كاملا من الجهل أمام بعض "تطورات" بن عمر، والتي خلص إليها تحقيقي .

كان ينبغي إذن أن تعطى لعمل بن عمر أهميته التاريخية الحقيقية. فاتجهت هذه المرة صوب قدماء المحاربين في الهند الصينية: وحدات القناصة، والكوم، والفرسان... إلا أنه كان يتعين أولا أن يعاد هؤلاء إلى أنفسهم، وأن يتم فك

رموزهم داخل السياق التاريخي و الاجتماعي لمراحلهم. كان ينبغي أن تؤخذ في الحسبان أيضا حدود الذاكرة: فإلى أي حد كان بإمكان الأشخاص المستجوبين الذهاب أبعد من اللازم في إعادة استحضار الذكريات وبناء "فنتامهم" الخاص؟... هنا أيضا كان بعض قدامى المحاربين يقررون الصمت، بينما كان آخرون يتكلمون وهم يمارسون الرقابة الذاتية. كثيرا ما كان يسيطر على الانطباع بأنني لم أعمل بما فيه الكفاية، وبأنني لم أكن مجتهدا في جميع المعلومات، وأنني فوتت عليّ شهادات أساسية. وهكذا كنت على وشك الالتقاء بعبد اللطيف المنصوري، طبيب بن عمر وصديقه الحميم خلال السنوات الأخيرة من عمره، خلال منفاه الجزائري، فإذا به يلقي حقه في حادثة سير بإسبانيا. أين ذهب كذلك الجيلالي المساعد الأول لابن عمر في الفتنام؟ أين يمكن العثور على "إلس" أو "إسو" كما كان يسميه أصدقائه، والملقب ب"فبييت نكوين نهو" الذي التقاه جاك دوايون، صاحب المؤلف الكلاسيكي: "جنود هوشي منه البيض" (12)، هل في مكان ما من منطقة لوميدي بفرنسا؟ ألم يكن من السابق لأوانه كتابة قصة مثل هذه؟ هل كان في استطاعتي المزيد من الانتظار؟ العديد من الوثائق فقدت وأخرى لايزال غير ممكن الوصول إليها .

هل كان تأليف الكتاب زنيا قريبا أكثر مما ينبغي من الموضوع المتناول؟ جل الفاعلين بيدون لي هنا متخلصين من الفعل، كما لو كانوا محررين من ذكريات الأحداث التي مارسوا تأثيرهم على مجراها (13)، والحقيقة كذلك أن الفورية ليس سوى جوانب سلبية، بل لها أيضا فضائلها .

بعد عودة بن عمر من الفيتنام، بقي في المغرب بعض الوقت قبل التوجه إلى الجزائر للالتحاق بالمعارضة المسلحة المغربية، وهنا تبرز مناطق ظل يحاول أغلب الشهود "المسؤولين" حمايتها بأي ثمن. وإذا كانت، ب شكل عام، "لا توجد مجموعات أو أشخاص أو مؤسسات ليس لها مناطق ظل تحميها، وترد مسرعة بالإخفاء التام على الإضاءة غير الملائمة" (14)، فإن عدة شهود ما زالوا يشعرون بمصلحة حيوية في الحفاظ على هذا الجانب من حياتهم في الظل. و بالنظر إلى بعض المعطيات، فإن واجب تكتم كبيرا يفرض نفسه على المؤلف نفسه .

كلما كانت تحقيقاتي تتقدم أكثر، كلما أصبحت واعيا أكثر بالوظيفة التي كنت أعطيها بصورة لاواعية للشخصية: كنت أجعل منها رمزا لتساؤل إجمالي أكثر شمولية. إنها إذن كتابة عن جوار "مشارك" أكثر مما ينبغي في الأحداث، كتابة إحصاء وتقطيع، وبالضرورة كتابة إقصاء: فماذا كان يعني بالنسبة لذلك الذي عاش في الفيتنام، الربط بين المقاومة من أجل التحرير الوطني والمقاومة من أجل التحرير الاجتماعي، وعدم تحقيق هذا الربط في المغرب؟ ألم تكن من الاعتراضات الأساسية لجيل المناضلين الشباب في نهاية الستينات وبداية السبعينات. جيل كان كله إخلاصا لماركسية تسمى نفسها بالثورية. هي لماذا لم ينطلق التحرير الوطني بارتباط مع التحرير الاجتماعي سواء في المغرب أو باقي البلاد العربية؟ هل ارتكبت بعض الأخطاء؟ (15)، كان المسار الرمزي، ولكن الحقيقي تاريخيا، لابن عمر يعيد طرح سؤال الأخطاء الإستراتيجية للحركة الوطنية وخصوصا أخطاء اليسار. بن عمر لملقب بمعروف هو الفيتنام والصين، كما جرى في وقت واحد معاشتهما واستبطنهما وامتلاكهما من جديد، وليس قط ببساطة، مراجعة مستقاة من الكتب أو نماذج نظرية عاطفية وجمالية ...

على أن القيمة الدالة والوجودية لحالة امحمد بن عمر لحرش لم تكن لتتوقف عند مصيره الثوري بالفيتنام: ألم يكن قد التحق مبكرا بالخلايا الأولى للحزب الشيوعي المغربي؟ ألم يكن قد عاش من الداخل إحدى أكبر التجارب الاشتراكية من "الداخل"؟ ألم يعمر مدة طويلة في الدول الاشتراكية بالمعسكر الشرقي؟ ألم يكن أيضا قد تخطى عن انتماءاته الحزبية الأولى في نهاية مشواره؟ .

لقد كان من الممكن أن يكشف عن الجنرال بن عمر كأحد الرموز الأكثر دلالة لمسارات ماركسية في منطقتنا، إلا أنه كان يضحى مناسبة لكتابة تاريخ اجتماعي عام، وفي نفس الآن لتاريخ شخصي، أكثر من اللازم، مناسبة لوضع صورة نموذجية تماما وتمييزه بشكل لا يقبل الاختزال، ولرسم كليشيه المناضل النموذجي في العالم الثالث في صورته المثالية التي هي تجسيد للبدوي الخارق للعادة، وللبلبل وللزعيم السياسي وللعسكري الكبير، ولكن أيضا ذلك الذل ينتهي حقيرا، سكيراً، منحطاً منبوا .

أيضا الرفيق الجنرال، لو لم تكن قد وجدت لكان من الضروري إيجادك دون شك وخلفك كبطل لملاحم خارقة، ولأمال عمالية وبدوية لا تصدق، وكلوحة مناقضة للاكفهرار والجمود المعروف عن دولنا .

ل ولم تكن قد وجدت بالفعل ببساطة وبتواضع لكننا نحتناك ووضعناك وخلفنا أسطورتك من كل ذلك الغموض البئيس لليوطوبيات الباقية فينا .

كل المعطيات يبدو أنها تدل على أن امحمد بن عمر لحرش ولد قرب خريبكة سنة 1914 أو 1915 في أمزيز وسط قبائل أولاد عبدون، أصوله البدوية تبدو مؤكدة (16).

هناك بالفعل عناصر دقيقة قليلة معروفة عن هذه المرحلة الأولى من حياته، في الفتنام، كان يعجبه أن يعرف بنفسه كابن إحدى تلك القبائل الكبرى للأطلس التي قاومت حتى النهاية زحف القوات الفرنسية. كان يوضح أنه ورث لون بشرته الداكن عن جدته السمر، وكان يبدو فخورا بهذا النسب. كبر امحمد بن عمر في وسط اجتماعي متميز في هذه المرحلة الاستعمارية المعروفة بتكاثر القرى المنجمية. وكان قد فرض إقامة هذه التجمعات السكنية استغلال المناجم والفوسفاط بأولاد عبدون الذين جاء منهم، منذ البداية، عدد مهم من العمال. كانت نقط تجمعهم في هذه القرى كثيرة وذات بنيات متنوعة وغير متمركزة مخصصة بالدرجة الأولى لإسكان العمال (17).

كانت هذه الدواوير- العنابر امتدادا للاستغلال كما هو الشأن بالنسبة للأجور أو للبنيات التحتية للمناجم مع علاقات اقتصادية متنوعة، وديناميكية اقتصادية خاصة تفلت من مراقبة المكتب الشريف للفوسفاط (18).

هذه البنية العامة كانت حاسمة في إنشاء حياة جماعية فريدة وتكتل اجتماعي مستقل، ومرتبطة مستقبلا بهذا الإطار الجديد القائم على استخراج المعدن وتحمل المقاوله الناتجة عن ذلك لمسؤولية الحياة الاجتماعية .

كان هذا يجري في خضم نزاعات عديدة كتلك التي كان يتواجه خلالها وسط قروي مع بلدات منجمية أو التوجه العام مع العلاقات شبه المؤسساتية الرابطة بين القرى وإدارة المقاوله أو تواجه دوام البلدات مع عرضية المؤسسة المنجمية.

من المعروف أن قرار استخراج فوسفاط الجبر من طرف المكتب الشريف للفوسفاط يعود إلى العشرينات. وكانت القبائل المعمرة لهضبة أولاد عبدون، والتي كانت في الحقيقة قليلة السكان في البداية، تعيش حياة شبه الرحل، حيث كان هؤلاء المربون للماشية الصغيرة يغيرون أمكنتهم باستمرار بحثا عن أراض معشوشبة زناخ معتدل. فأراضيهم القبليّة قليلا ما كانت تزرع باستثناء الجزء المكون من سهل الكفاف .

في هذا التاريخ، كل جزء صغير جدا من السكان "مجتمع" حسب مصطلح الإحصائيات. أن تعمير المنطقه يبدو ذا طابع متحول، مؤقت وغير مستقر. لم يكن ثمة في تلك الفترة طريق رئيس للمواصلات، كان مصدر اليد العاملة بالأساس هو التوزيع أو السجناء، وقد ارتفع عدد العمال النائيين القادمين من جنوب المغرب .

هل كان بن عمر ابن إحدى تلك العائلات الصغيرة من المزارعين المربين للماشية الصغيرة من ذوي المداخل المقلية في هضبة شبه جافة؟ أو من تلك العائلات التي التقفها التجمع السكاني المنجمي بخريبكة والذي كان، خلال العشرينات والثلاثينات، ينشأ ويكبر ويجتذب القرويين المجاورين بشتى الأشكال سواء في القابضة المركزية التي فتحت أبوابها في خريبكة، أو قباضة بوجنيبة أو بولنوار؟ في سنة 1936، كانت هذه المؤسسات الثلاث موجودة أصلا تنشطها المهن الصغيرة التي أدى إلى ظهورها في المدينة والقرى المحيطة بها مجيء عمال جدد .

ولد بن عمر وترعرع وسط هذا المناخ الذي لم تتوقف فيه بنايات المكتب الشريف للفوسفاط منذ العشرينات عن النمو حيث تتناقض، بشكل صارخ، أشكال البناء العفوية في الأحياء الهامشية، فهناك الكاريان، وهو بناء زهيد الثمن، عبارة عن خليط من الأكواخ والنوالات.. متداخل مع بناء صلب من النوع القروي، ومع بنايات صلبة من الطراز المدني.

نحن الآن ربما في 1921 و1930، كان امحمد آنذاك يبلغ من العمر حوالي 14 أو 15 عاما، ترى ما مصيره فيما بعد؟ ماذا يفعل؟ إلى غاية 1942 أي وهو في سن السابعة والعشرين؟ ماذا فعل؟ هل اشتغل بالمنجم؟ أم بمهن صغيرة لدى التجار؟ أو في الأوراش؟ نادرا ما حدث زوجته عن عائلته وعن شبابه وعن أنشطته وهو راشد. وإذا حصل وتحدث عن ذلك فبعبارة غامضة. اجتاز بنجاح مباراة الدخول إلى البريد والمواصلات. وكانت مباراة صعبة في تلك الفترة، تتضمن إنشاء وتمارين في الحساب، ومعرفة لا يستهان بها بالجغرافيا وتاريخ فرنسا .

أكان له الاختيار عندما تجند وهو شاب في الجيش؟ أم كان مرغما؟ ما من شك في أنه شارك أيشا في الحرب مثل

آلاف المغاربة، من أجل كسب الرزق: "كاجينا، على الخبز والكاميليا" (19)، على كل، ها هو في الحرب العالمية الثانية، حاضريقة في قلب الحماية نفسها، خصوصا منذ الإنزال الذي قامت به قوات التحالف في شمال إفريقيا بمناسبة عملية "طورش" في نونبر 1942 في رواياته إلى معارفه سيحكي لاحقا أنه مشى فوق أرض طبرق في مصر، و غرس رجليه في رمالها السوداء" ما زالت حكاياته عن المناجم في جنوب طبرق ترن في أذني"، يؤكد عبد الله العياشي فقد شاركت تحت قيادة الرائد دوكليرك في معركة الصحاري الليبية وفي المواجهات التي عرفتها تونس، وكذا في أهم مراحل الحملة الإيطالية سنة 1943.

واشتهر على الخصوص خلال معركة مونطي كريسبو بإيطاليا عندما أطاحت الطواوير المغربية بهذا الموقع الذي كانت قد تعثرت فيه القوات الأمريكية. ذكرى الحرب طارده مدة طويلة كتجربة ذات أثر عميق، وسنرى لاحقا بعد مدة طويلة في الفتنام أنه سيستعمل المشاركة الظاهرة في معرك كازينو كسلاح للدعاية ضد الحملة العسكرية الفرنسية في الشرق الأقصى.

كانت لابن عمر نودار كثيرة عن الحملة الإيطالية وخصوصا عن تصرفات العسكر المغاربة هناك. ان قصة الكاتب الايطالي ألبيرتو مورافيا عن اغتصاب" لاتشيوتشيارا وابنتها روزيلا ليست فقط وليدة الخيال الروائي لهذا المؤلف، ولكن لها قيمة الوقائع التاريخية. مثل هذه الوقائع قد تكون تعددت في كل المناطق تقريبا عند مرور القوات المغربية وجيوش أخرى (20). في كتابها " أفا سنة من السعادة"، تعيد ماريانا أنطونيبيا ماتشوتشي وصف المناخ الذي ساد خلال زحف الوحدات المغربية تحت القيادة الفرنسية: " ظهرت الفرقة العسكرية المغربية في منطقة لاطيوم بقيادة الجنرال كيوم وهي التي وهي التي كانت قد بنيت سم داء الزهري في منطقتي لبيوي وبازيليكاطي. وقد حكى لي مالبارط أن البابا بعث خطابا إلى قيادة القوات المتحالفة يقول فيه: " أوقفوا المغاربة بأبواب المدينة الأبدية". ففي الفاتكان كانت هناك ثلاثة آلاف امرأة لاجئة. وبموجب هذه الموجة النسائية التي كانت تندفق في اتجاه البابا، قدم له الضباط المغاربة التبجيل معتقدين أنه يملك حريما يضم ثلاثة آلاف امرأة وهي علامة لاريب فيها على غناه وبأسه .

وقد كان " للمغربيات" أي النساء اللواتي اغتصبن من قبل المغاربة، دور مهم جدا في هذه الفترة من حياتي .

بيد أن المغاربة كانوا قد " مغربوا" أيضا الأطفال النابوليين (من مدينة نابولي) البالغين من العمر ستا إلى سبع سنوات والذين كانت أمهاتهم تبيعهم لجنود كيوم: فبعد أن يتحسسوا كما ينبغي المؤخرات الصغيرة لمعرفة قيمتها، كان الجنود يدفعون مقابلها خمسة إلى عشرة دولارات" (2).

إن كلام م. أ. ماتشيوتشي يكاد يكون مبالغا فيه. ويؤكد أحد نصوص بن عمر قوة شهادتها: "يبين لنا تاريخ الجيوش في مختلف الحروب أن الانتصارات التي تحقها جيوش المرتزقة مردها بالأحرى إلى أدوات الحرب وفن استعمالها. أما شجاعة وحداتها فكثيرا ما كانت تغيب في كل مرة، لم تكن هناك غنيمة منتظرة؟ فعلى سبيل المثال وخلال الحرب العالمية الثانية بإيطاليا رأينا قوات الكوم، المعروفة بقتاليتها وشجاعتها وهي تفر مثل الأرانب أما القوات الألمانية في مونطي كريسبو. فكان لابد من المناداة على وحدات الرماة المغربية التي استرجعت عقب تحضير هائل يتجاوز الحدود لسلاح المدفعية،المواقع التي تركها " الكوم الشجعان" في المقابل،خلال معركة سبيينا وبعد ثلاث محاولات فاشلة، نادى الحلفاء على وحدات الجنرال جوان. هذا الأخير، الذي كان عارفا بنفسية جنوده، وعد ب 24 ساعة "دون قوانين" بعد إسقاط سبيينا. وببطبيعة الحال تمت السيطرة على سبيينا خلال أقل من يوم واحد (...). فطبقت الأربع وعشرون ساعة دون قوانين (...). وقد تميز الكوم بشجاعتهم فنهبوا واغتصبوا وقتلوا سكانا عز لا (22). هذه الأعمال السيئة للعسكر لم تمنع بن عمر من اعتبار أن الشعب المغربي كان يحارب بالأساس من أجل الحرية. كان يؤكد على ذلك كما لو كان عقيدة لرفاقه الذين ما زالوا يحطون اليوم نتقا من الروايات التي كان بن عمر يسردها لهم عن هذه الحرب، بل إنه كتب ذلك بوضوح " إننا ننسى أن الشعب المغربي حارب بشجاعة البربرية النازية من الحدود التونسية إلى ألمانيا، ليس فقط من أجل حرية الآخرين ولكن من أجل حريته هو" (23).

القدرات العسكرية لابن عمر تبدو بديهية: كان معروفا ضمن نخبة الرماة في الجيش الفرنسي الذي أنهى في صفوفه الحرب برتبة مساعد أول، وسيمتح فيما بعد وسام ميدالية الحرب .

ليس هناك ما يثبت المعلومات البيوغرافية التي نتحدث عن بن عمر كعضو في الخلايا الأولى للحزب الشيوعي المغربي. من المؤكد أنه قد يكون تميز، وهو " عامل في طور التكوين"، بنشاطه النقابي وأنه " أعاد ربط الاتصال بالحزب بعد الحرب"، زوجته كاميليا ما زالت تؤكد أنه كان شيوعيا قبل الحرب، وهو ما يظل غير مؤكد، ولكن أن يتعرض للتأثير الشيوعي خلال حملته بإيطاليا؟ في أحد أعداد شهر مارس 1944 من "أكسيون سانديكال" (العمل النقابي) وهي أسبوعية أهم مركزية نقابية خلال الحماية (الاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب)، نعثر على هذه

المقالة المقتضبة: "كنا توصلنا برسالة من مدير المصلحة العامة للإعلام (بالجيش) يخبرنا فيها أنه نظرا لأن جريدتنا بدت أنها من المحتمل أن تثير بصورة خاصة، اهتمام جنودنا المنتمين للحملة العسكرية بإيطاليا، فإنه كان يعززم تسجيل 20 سترাকা فيها.. وكانت هذه المصلحة تدعو إلى منح هذه الاشتراكات بسعرها الأدنى، وإذا أمكن بسعر التكلفة فقط.. والآن، ها نحن هنا نقوم بذلك بالمجان، وقد بعث مدير الإعلام مؤخرا إلى أكسيون سانديكال بلائحة العناوين.. إننا لا نشك في أن المرسل إليهم، وهم قواد مختلف الفيالق، سيكونون سعداء بنشر جريدتنا وسط رفاقنا الجنود" (24).

بانتهاى الحرب، دخل بن عمر إلى المغرب ابتداء من 1945 هذه الحرب التي يبدو أنها فتحت أمامه الآفاق، حيث لعبت دورا محوريا في التكوين السياسي لهذا الرجل القابل للتلقي والمتفتح بصورة متميزة حسب أقوال الذين عرفوه. كل المعلومات تتقاطع لتبين أنه لم ينتم إلى الحزب إلا بعد الحرب حيث كان يتمتع مسبقا بوعي وبمستوى سياسي عال.

وسنرى فيما بعد أن مستواه السياسي العالي وقدراته العسكرية ستحسم في اختيار بن عمر للمهبة الفتنامية .

حسب الذين عرفوه آنذاك، فإن بن عمر كان ذا سمعة طيبة، فمن بين العمال الذين برزوا بشكل مبكر في تاريخ الحركة النقابية بالمغرب، فرض امحمد بن عمر نفسه إلى جانب مناضلين آخرين مثل الطاهر، والحدوي، والعلوي مامو، ولحسن بن المعطي والطيب بوعزة حيث كان يتكلم بطلاقة العربية والفرنسية، ويظهر مثل مناضلين شيوعيين ومحترفي العمل النقابي الفعال في الوسط القروي، وستعزز ثقافته السياسية في الحزب الشيوعي المغربي وفي مدارسه التكوينية، الحدوي كان حاصلًا على شهادة الكفاءة في الكهرباء و م . العلوي و ط . بوعزة على شهادة الدراسات المهنية أما الآخرون فغادروا المدرسة مبكرا ( 25).

امحمد بن عمر نفسه كان له مستوى السنة الأولى من شهادة الدراسات الانتدائية ( 26 )، تابع دروسه في مدرسة فرنسية إسلامية بخريبكة إلى غاية القسم المتوسط، وقد يكون قد حصل على شهادة الدراسات الابتدائية الإسلامية التي كانت موادها عديدة وأصعب من مثيلاتها في التعليم الأوروبي .

أصبح بن عمر موظفا في البريد والمواصلات ولكن لمدة قصيرة: تم تعيينه في تادلة، لكن غياب أرشيف وأثار موثقة عن هذه الفترة من حياته يجعلها غامضة، ويتذكر مستخدم بريد يبدو أنه أول شخص تم توظيفه في تادلة سنة 1931، أن بن عمر قد يكون اشتغل بالكاد سبعة أيام في البريد كموظف مرافق، كانت له رتبة ناقل بضائع، ومن مجموع الأيام السبعة كان بن عمر قد قضى ثلاث ليال في السجن الذي رتمه فيه سلطات الاحتلال، كان ذا طبع " متمرد" قوي البنية، كما كان له مسبقا حس بلاغي قوي، لم يكن يخفي تعاطفه مع الشيوعية، وكان العديد من القادة الشيوعيين قد جاؤوا إلى ذلك لزيارته في مقر عمله نفسه ( 27).

إلا أنه يبدو من الصعب اليوم إعطاء المزيد من التديقات حول ظروف مغادرته للبريد والمواصلات، خلال هذه الفترة بدأ اسم بن عمر في الصعود أكثر فأكثر في الأنشطة النقابية أولا، وفي العمل السياسي لاحقا، وبدقة أكثر، في النشاط النقابي والسياسي الموالي للشيوعية .

هل من الممكن اليوم إحصاء معلومات دقيقة حول مشوار نقابي نشيط في الأربعينات؟ المعلومات المتوفرة تبدو، على الأقل في البداية، نادرة غير مؤكدة و سطحية أكثر مما ينبغي، هل كان حاضرا خلال الأسبوع الأخير من شهر شتنبر 1945 عندما ترأس علي يعنة شخصا، أمين الحزب الشيوعي المغربي القادم مباشرة من البيضاء، تجمعا لتدشين مقر جريدة الحزب " إسبوار " (الأمل)؟ ( 28 ) لم يعد السعي على يتذكر اليوم وملابسات أول اتصال له بابين عمر ويتردد في تحديد ذلك بدقة ( 29). هل حصل ذلك في تادلة أم في خريبكة؟

فيما بعد، وبمناسبة إنشاء اللجنة المؤقتة للجبهة الوطنية، وبعد تدخل بورقية، أحمد المهدي، وسي امبارك، باسم نقابة العمال الفلاحين، ها هو من تسميه الجريدة " سي بن عمر" يأخذ الكلمة باسم قدماء المحاربين بمنطقة تادلة. ( 30 ) إن أهمية هذه المنطقة بالنسبة لقدماء المقاومين تكشف عن أحد الانشغالات الكبرى لشيوعي هذه الفترة الذين كانوا يبحثون في هذه الأوساط عن أرضية مناسبة لمد نفوذهم .

وتظهر الجبهة الوطنية، التي كان بن عمر يتحرك مسبقا داخلها، وهي منظمة تخضع إلى حد كبير لسيطرة الشيوعيين كثمرة تسلسل ظروف تشهد على أفول متواصل لنفوذ الحزب الشيوعي المغربي، من المعروف في ذلك الوقت أن جل التنظيمات السياسية المغربية كانت ترفع شعار المطالبة " باستقلال" المغرب، في حين كان الحزب



الشيوعي المغربي يكتفي بالمناداة، من خلال توصية داخلية للجنة المركزية (فبراير 1946) بوحدة جماهير المغرب من أجل "تحسين مستوى معيشتهم وانتزاع الحريات الديمقراطية" (31). لكن ومنذ وثيقة 3 و4 غشت 1946، ذهب الحزب بعيدا في مطالبه بالدعوة إلى إلغاء معاهدة فاس (التي أقرت الحماية الفرنسية على المغرب) والاتفاقية الفرنسية الإسبانية لسنة 1912 (32).

وفي 28 غشت، استقبل وفدا عن الحزب الشيوعي (33). في تلك الفترة بدأ تواجد المغاربة في قيادة الحزب يصبح أكثر أهمية هذه الوقائع العديدة إضافة إلى إبعاد الشيوعيين من السلطة في فرنسا على يد حكومة راماديي يبدو إنها تفسر تدني تعداد الفرنسيين داخل حزب الشيوعيين، وكذا انخفاض تجنيد المناضلين في الوسط الأوروبي. كانت أهمية حزب الاستقلال تتزايد بشكل محسوس وأصبح الحزب الشيوعي يضعف كل يوم أكثر، بصورة لا جدال فيها. أكان ثمة أيضا كما حاول أن يشرح ذلك بعض المؤلفين، تراجع اختياري أم نوع من التخريب للحزب؟ هل طبق الحزب الشيوعي المغربي ما يسمى ب" نظرية الاحتياطات غير المباشرة". يبدو مستبعدا أن الحزب الشيوعي المغربي قد تراجع بشكل اختياري حتى لا يضر بصعود حزب الاستقلال .

كان نفوذ الحزب الشيوعي المغربي يعاني من تراجع في صفوف العمال المغاربة: التحق عدد مهم من أعضائه بحزب الاستقلال، وأمام هذا التراجع المتواصل لنفوذه اضطر الحزب الشيوعي المغربي إلى اللجوء سنة 1947 إلى إنشاء الجبهة الوطنية (34). وكانت نتائج هذه التجربة من أكثر النتائج نسبية (35)، مع ذلك، كان تأثير الحزب الشيوعي المغربي يبدو قويا في بعض المناطق: في تادلة مثلا، وبفضل نشاط مناضلين تميزوا بروحهم القتالية، حقق الشيوعيون انتصارات كبيرة.

عبد السلام بورقية، أحد الرواد المغاربة للحزب الشيوعي، وعضو الديوان السياسي لحزب التقدم والاشتراكية حاليا، يحتفظ بذكرات حية عن الصراعات الشيوعية خلال تلك الفترة خاصة في منطقة تادلة: " كان الحزب قويا في تادلة، في الحقيقة تم تأسيسه هناك فتادلة تبدو مرحلة مهمة في إنشائه. لقد حققنا إنجازات مهمة خصوصا في الأوساط القروية لمواجهة المعمرين وحلفائهم الإقطاعيين المحليين، استطعنا أن نضع حدا لبعض المظالم وساهمنا في التخفيف نسبيا من بؤس الحياة القروية.. مازال هناك فلاحون وعمال فلاحيون يتذكرون اليوم ماذا فعل الشيوعيون عندما جند المعمرون هؤلاء في أشغال شاقة لزراعة البذور والحصاد، واقتادوهم في شاحنات وعربات مكتظة إلى أراضيهم لتشغيلهم فيها دون أي تعويض" (36). وقد أتاحت الفرصة لابن عمر ليطلع بنفسه على المعاناة القروية وعلى نغص العيش الذي لم يكن يكف العمال الفلاحيون عن التعرض له حيث أشار في أحد نصوصه المنشورة في جريدة "إسبور": " الضرب، الشتم، السجن دون مبرر كأمثلة، هذا دون أن ننسى الظهير الشهير الذي يسمح باحتفاظ المقاتلة بالعمال إلى غاية استيفائه لديونه، وبما أن العامل مرغم على الاستبداد للعيش، فإن هذا يعني ببساطة نظام القنانة، واستحالة مغادرة العامل الفلاحي لمشغله" (37). كان ابن عمر يكتب عن حرية العمل الخيالية ما دامت الديون تتراكم .

غير أن الروح القتالية للشيوعيين تتجلى أكثر في الوسط النقابي رغم أن هذه الروح كانت تعاني في 1949 من بعض التراجع بالنظر إلى عدد العمال المنتمين للنقابات، فاتساع مجال العمل النقابي بدا أنه مدين لنشاط الشيوعيين (38). فممنذ 1945 و انطلاقا من 1946 كان للعمال المغاربة الحق في حضور التجمعات النقابية بحرية، كما كانوا يشاركون في التسيير، وفي الإدارة وحتى في قيادة نقاباتهم وأصبح عدد الذين يأخذون من بينهم الكلمة خلال التجمعات يرتفع تدريجيا، كما كان يتم استقبال وفد من قبل مصالح الإقامة العامة، لا بل من قبل المقيم العام شخصيا. هذا التقدم تم تحقيقه على عهد المقيم العام الجنرال إريك لابون الذي كان يعتبر، حتى في نظر أكثر الوطنيين تطرفا، شخصية متسامحة ومتفتحة نسبيا لكنه لم يقرر شخصيا إلغاء ظهير 24 ماي 1938 الذي يمنع المغاربة من ممارسة العمل النقابي (39).

أرخ المؤتمر الرابع للاتحاد المنعقد ما بين 30 نونبر و فاتح دجنبر 1946 لرحلة مهمة في مسلسل مغربة الحركة النقابية. فحوالي 60% أي ما يعادل الثلثين من مجموعة 55 ألف نقابي كانوا آنذاك مغاربة، وأزيد من 200 مندوب يتوفرون على 459 تفويضا ويمثلون 148 نقابة أفرورا نقابية. كانوا آنذاك مجتمعين في قاعة الحفلات بجنان الحارثي بمراكش حسب دورية " لأكسيون سانديكال ."

وفي التقرير الأدبي الذي قدمه الكاتب العام للاتحاد هنري برودوم، ركز على عدة مشاكل خاصة قلة نشاط تنظيمات القاعدة، ومحدودية انتشار الصحافة النقابية والبيروقراطية، و " غياب الجدلية في العلاقات بين القاعدة والقمة، وبطء الإجراءات المالية... "، ودعا إلى تكثيف عملية تجنيد المناضلين في أوساط العمال المغاربة، " كان علينا أن نعد في صفوف نقابتنا 50 ألف، بل 80 ألف مغربي، كما كان يقول لنا في يو ما السيد لابون، وليس 33 ألف، ونحن

نشاطه فعلا هذا الرأي(40)، في عام 1946 كان رقم 33 ألف نقابي على الأقل قد تم مسبقا بلوغه إلا أن الجديد في المؤتمر هو تواجد ومشاركة مناضلين مغاربة متميزين .

فمن مجموع 33 خطيبا، إثنا عشر كانوا مغاربة: قاسم مثلا، وهو عامل بسد امفوت تناول الكلمة بالعربية فتمت ترجمتها إلى الفرنسية فيما بعد، وقد أثار اللاشعورية المثيرة للاستنكار للحركة النقابية المغربية، والغياب الذي لا يقل إثارة للاستنكار لتشريع اجتماعي لصالح العمال المغاربة. وقد تم فوراً حل النقابة التي أنشأها في بضعة أسابيع فيما بعد، وقاسم نفسه تعرض للاعتقال، كل المغاربة الذين أخذوا الكلمة أثاروا، كإلزام، الحق في العمل النقابي. امحمد الطاهر قام بإحدى أكثر المداخلات حدة: " يجب احترام الوعود التي أعطيت لنا في أعلى مراكز السلطة، فكثيرا ما يفقد مناظرون عملهم بسبب نشاطهم النقابي يجب وضع حد لهذه الوضعية، وإذا تمادت الإقامة العامة في موقفها فسيكون علينا التحرك في باريس، وإذا دعت الضرورة إيفاد بعثة إلى الحكومة الفرنسية الجديدة" ( 41)، كما هو حال كل المناضلين المغاربة الحاضرين في المؤتمر، التحق الطاهر بالعمل النقابي عن طريق الحزب الشيوعي، وقد كان الطاهر يجسد النموذج المثالي للعامل المغربي الذي تكون على الطرق التنظيمية للأحزاب والنقابات الفرنسية. ولم يكن امحمد الطاهر المثال الوحيد. كان مندوب الموانئ فيما كان مناظرون آخرون كالثوفاني مناديب عمال النقل، والناصرى مندوب عمال البحرية، وقاسم مندوبا عن البناء، والطيب بوعزة مندوبا عن المناجم وميمون العلوي مندوبا عن البريد.. أما امحمد بن عمر فكان يمثل نقابة العمال الفلاحين بتادلة .

وإلى ذلك فقد كان مؤتمر الاتحاد بمراكش تحت سيطرة الحزب الشيوعي، كان هذا الأخير هو الذي يعطي التوجيهات إلا أنه كان يبدئ مرحلة جديدة في تطور الحركة النقابية بالمغرب، فأول مرة وصل مغاربة إلى مراكز المسؤولية داخل النقابات. ففي 1945 كان مكي عبد النبي المغربي الوحيد العضو في اللجنة التنفيذية. وفي 1946 التحق سبعة مغاربة بهذه اللجنة وأصبح ثلاثة آخرون أعضاء في مكتب الاتحاد العام، إضافة إلى ذلك تم خلق منصب كاتب مشارك، وأسند لمغربي، بالمقارنة مع وضعية الدول المغاربية الأخرى، كانت مغربة الحركة النقابية تعرف تأخرا بينا في الجزائر وتونس كان العديد من المناضلين النقابيين قد سبق تكوينهم خلال سنوات حكم الجبهة الشعبية في فرنسا وفي الغالب قبل تلك الفترة. في المغرب بالمقابل، كان ظهير 1938 قد أخرج إمكانيات وصول أطر مغربية إلى المسؤوليات النقابية. فالأطر النقابية التابعة للاتحاد العام للنقابات المتحدة بالمغرب وأولئك المنتمون لاحقا وبعد فترة وجيزة للاتحاد المغربي للشغل، شيوعيين كانوا أم استقلاليين تم تكوينهم خلال سنوات ما بعد الحرب .

كان عبد السلام بورقية قد استقر مسبقا في منطقة تادلة وقد قاده عمله إلى هناك حيث انتسب إلى الحزب الشيوعي. كما كان يوجد هناك عنصر آخر سيصبح أيضا مهما في المستقبل: المعطي اليوسفي وهو من مواليد أولاد يوسف بنفس منطقة تادلة، وعضو بالحزب الشيوعي منذ إنشائه في 14 نونبر 1943 دون أن يغفل صورة الرائد مارسيل لامورو وهو يوجب باستمرار هذه الأرض مؤسسا بها الحزب مثلما فعل في العديد من مناطق البلاد، منظما بها نوات قروية ما بين 1947 و1948، ومبلورا المقاربات الأولى للحزب بخصوص قضايا العالم القروي إبان الفترة الاستعمارية.

لقد تطورت الأنشطة الأولى لابن عمر بالأساس على أرضية العمل النقابي في سياق يطبعه التطور الواضح للحركة النقابية، في منطقة تعيش تحت نفوذ شيوعي قوي، كان ابن عمر يظهر آنذاك كعضو في مكتب نقابة سد بين الويدان، وكان هنري برودوم، الذي أصبح منذ المؤتمر الثالث الكاتب العام للاتحاد العام للنقابات المتحدة بالمغرب ( 42)، قد جاء شخصيا لإنشائه في قلب ما كان يعرف بالمنطقة الأمنية، أي الممنوعة من قبل السلطات من ممارسة الأنشطة السياسية والنقابية، كان ابن عمر يظهر بالتدرج كأحد عناصر المكتب الأكثر نشاطا وكأحد المسؤولين النقابيين بسد بين الويدان الذي كان طور الإنجاز بيده العاملة الضخمة التي تضم حوالي سبعة آلاف عامل ( 43).

في الحقيقة، كان قد شرع في إنجاز أعمال سقي مهمة بالمنطقة، وفي الوقت الذي كانت تهيم فيه أزمة لزراعة القطن في 1946، ظهر مشكل طبيعي في موقع الدائرة السقوية التي كانت تبدو فيها الطبقة المائية الجوفية وهي ترتفع بفعل السقي مقترنة بصورة خطيرة من سطح الأرض وبشكل يهدد بتحويل جزء كبير من المنطقة المسقية إلى مستنقع. كان السقي المكثف يبدو بوضوح هو السبب في هذا الارتفاع لمستوى المياه الجوفية وكان الجريان السوء لهذه المياه باديا نظرا للمانع الذي تشكله المميزات الجغرافية لهذه الأراضي هو السبب العميق لهذا الارتفاع .

لهذا تم الإسراع خلال سنتي 1947 و1948 بإنجاز شبكة لتصريف المياه في مجموعة المنطقة المهتدة، وقد كان ذلك فعلا لأنه كان ينبغي تثبيت الطبقة المائية في مستوى ملائم عن طريق صرف المياه الزائدة في اتجاه النهر، كما تم اتخاذ عدة إجراءات تجريبية أخرى ( 44)، رافقتها تعديلات إدارية مهمة، ونقل المسؤولين وتغييرهم ( 45).

كانت المنطقة المسقية قد ارتفعت مساحتها ب 1600 هكتار سنة 1946 و في 1949 انتقلت من 2800 هكتار إلى 17800 هكتار مجهزة بقنوات ترابية وكانت المساحة تضم 2000 هكتار من الأراضي الجماعية المستغلة من طرف المكتب مباشرة عن طريق جمعيات ثم إنشأوها من طرف الجماعات المالكة للأراضي .

إلى ذلك، ينبغي إضافة الاضطرابات الاجتماعية المتولدة عن الجهود المبذولة لاختيار قنوات اسمنتية لتوسيع شبكة السقي إلى جانب الأشغال الأولية التي دشنت في موقع سد بين الويدان ابتداء من 1946، وبناء معمل الشركة التجارية لأفريقيا الشمالية " S. C. O. M. A. N " وهي فرع مؤسسة " بونطا موسون " الذي كلف لاحقا باستغلال المعمل.

كانت هذه الأوراش المائية الكبرى المكثفة نسبيا والتي كثيرا ما صورت من طرف الاسطغرافيا الاستعمارية كأحد أكبر ملاحم تلك الفترة، و " كمعجزة " عهد الحماية (46)، تساعد بلا ريب على تطور كبير ومتسارع للحركة النقابية في أوساط العمال الفلاحين وعلى تجذر الشيوعية علانية .

كان بن عمر إذن في البداية عضوا في فرع أفورار لنقابة عمال سد بين الويدان والتي كان انشغالها الأول هو النضال في سبيل حق العمال في التنظيم السياسي والنقابي وتحسين الأجور وظروف العمل ثم سيصبح أمينا عاما للاتحاد شيوعيا لنقابة عمال سد بين الويدان وأمينا عاما للاتحاد المحلي لنقابات قصبية تادلة مجتهدا في تنظيم العمال الفلاحين في هذه المناطق المعنوية " مناطق غير آمنة " ( 47 ).

وكانت " لأكسيون سانديكال " ، و " إسبور " ترددان صدى الانشغالات التي تحرك البادية المغربية والمظالم الكبيرة التي يتعرض لها الفلاحون، في التقرير الأدبي الشهير الذي قدمه إلى المؤتمر الرابع للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب، ركز أمينه العام برودوم أيضا على ضرورة تكثيف تجنيد المناضلين المغاربة خصوصا وسط فئات العمال الفلاحين التي مستها بالكاد حركة الانتماء النقابي. وكان يلاحظ أن " فاس وتادلة تبدوان قد أخذتا انطلاقتها في هذا الاتجاه... " (48).

كان ذلك يتم في ظروف صعبة بشكل جلي كما تبين ذلك حالة امحمد بن عمر نفسه، وذلك حتى في تلك الفترة من الانفتاح التي جسدها عهد " إريك لابون " حيث كان العمال الفلاحيون يبدون رغم كل شيء محرومين من التسامح الذي تظهره الإقامة العامة. في الواقع، كان النشاط النقابي يلجأ إلى عدة تقنيات وهكذا وبرأي المحجوب بن الصديق، الذي سيصبح الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل، فإن " آلاف العمال الفلاحين أو الغابويين كانوا مدمجين بصورة شكلية في نقابات البناء " (49)، وفي جميع الأحوال كان العمل التنظيمي للعمال الفلاحين يتقدم مقابل تضحيات كبيرة وفي ظل ظروف قاسية.. وتحفظ وثائق تلك الفترة بآثار اعتقال امحمد بن عمر ووضع في سجن فردي ونهب المقر الصغير لفرع نقابته.

كان ثمة حوار مع جريدة " لأكسيون سانديكال " قد سجل ردة فعل امحمد بن عمر إثر ذلك، إذ كان يرى أن الاعتقالات الجارية آنذاك كانت دون شك معادية للعمل النقابي، فالنقابات كانت أول طرف مستهدفين بهذه العملية: " إن أقوى حجة هي أنه عند اعتقاله انتزعت 500 بطاقة وآلاف الطوابع البريدية وثلاثة دفاتر للمحاسبة، كما تمت محاولة الضغط علينا للكشف عن لائحة العمال المنقبين ليتعرضوا في وقت لاحق لإجراءات انتقامية وتمت محاولة ترهيبنا لكن دون نتيجة، إننا ندرك أنه ليست هناك مكاسب دون كفاح وأن كفاحنا من أجل شعبنا هو الذي يعطي لحياتنا معناها الحقيقي. ولن يوقفنا أي ضغط أو تهديد " ( 50 ). خلال سجنه من 21 إلى 31 ماي، استطاع امحمد بن عمر أن يوصل إلى رفاقه رسالة مكتوبة بقلم رصاص على ورق قديم للتأليف ذي لون كاكي يروي فيها ظروف اعتقاله وحبسه، وقد نشرت ذلك في جريدة " إسبور " نصها الكامل ( 51 )، كانت الرواية تشير إلى أن امحمد بن عمر كان متوجها إلى بين الويدان لغرض نقابي حاملا معه ترخيصا سكنيا، إلا أنه قرر إخبار القبطان بذلك معتقدا أنه يصحح خطأ وحتى يتفادى أي احتكاك مع المسؤولين .

وبما أن القبطان كان غائبا، فقد ذهب امحمد بن عمر للبحث عن وسيلة نقل نقله إلى السد بعد أن أخبر المخزني بأنه قد يعود بعد يومين: " كان الوقت ليلا وفجأة، وبينما كنت أمشي صادفت القبطان ومساعدته وهما على متن سيارة جيب، عدت على أعقابى لأتكلم معهما، لكن سرعان ما التقيت بأربعة مخازنية مسلحين كانوا يتبعون جريا سيارة الجيب التي كان يوجد بها القبطان، ومساعدته ومخزني آخر مسلحان، توقفوا بمحاذاتي وقال لي القبطان: " اصعد إلى السيارة لنذهب إلى السجن أولا! ستبقى هناك ثلاثة أشهر على الأقل! لايسمح بالتجول بحرية في منطقة عسكرية ثم عليك أن تؤدي السلام العسكري عندما يمر أمامك ضابط للشؤون الأهلية " ( 52 ).

"وضعوني في حبس فردي ممنوع كلياً على أي كان أن يتكلم معي. معتقل ليل نهار، وليست هناك إمكانية لأتنفس على راحتي، في الأيام الثلاثة الأولى لم يعطوني طعاماً ولا شرباً، والآن يقدمون لي خبز شعير أسود، حوالي 150 غراماً، دون اعتبار لمعدتي المريضة.. السجن مليء بالقملة والبرغوث والبق والفئران.. في أحد أركان الحجرة توجد مجموعة من الأسرة المصنوعة من الدوم وهي عبارة عن عشب للعقارب، في ركن آخر، كيس شعير يجلب الجردان والفئران، وفي ركن آخر، ملابس مريض بالحمى الصفراء مات في هذه الحجرة نفسها..". ( 53 ).

وبقلم بن عمر لا تبدو الفقرة الأخيرة التي ينهي بها روايته مجرد أسلوب تعبير مكرور : " ما أريدكم أن تذكروه أيها الرفاق هو أنني ما دمت على قيد الحياة، فلن أفقد الثقة أبداً، فقضيتنا عادلة والشعب كله معنا" ( 54 ).

ونتيجة للاحتجاجات التي جاءت من البيضاء وباريس ومنظمات ( FSM ) الفدرالية النقابية العالمية، أطلق سراح بن عمر .

بعد بضعة أيام تبين لمحمد الطاهر على أرض الواقع التعسف الجاري به العمل، حيث سجل الرعب الذي يصعب إخفاؤه عن سكان المنطقة، " طوال الطريق المتعرجة الصاعدة" إلى سد بين الويدان ألقى " عمالاً ودعاءً يخلون الطريق أو يقفون جامدين مع تأدية السلام العسكري عند رؤية سيارة أو حيب" ( 55 )، محمد الطاهر وقف في نفس الوقت على شعبية، بن عمر (56)، الذي كان يبدو أنه يتمتع بنفوذ واسع في المنطقة .

ويذكر علي يعة هذه الحالة الأخرى فقد أراد بعض العمال المتنازعين مع مشغليهم تفجير السد. وعند اطلاعه على مشروعه منعهم الحزب من ذلك: واضطر إلى إيفاد بن عمر مرافقاً بالمعطي اليوسفي لإقناعهم بالعدول عن ذلك(57).

نشر امحمد بن عمر خلال هذه الفترة العديد من النصوص في صحافة الحزب والنقابة. لكن من أين جاء هذا الميل إلى الكتابة؟ أم موهبة؟ أم واجب طبيعي لمناضل يعرف القراءة والكتابة؟ في هيئات التحرير بالجراند النقابية والشبوعية كانت تعقد اجتماعات منتظمة : (الاجتماعات كانت أسبوعية في إسبوار)، حيث كانت توزع المواضيع والقطاعات والأبواب إلا أن نصوصاً كانت تصل إلى رئيس التحرير من مختلف مناطق البلاد و عبر طرق مختلفة. كان الرفاق الفرنسيون كثيراً ما يساعدون زملاءهم المغاربة في تنقيح نصوصهم على مستوى اللغة" ( 58 ). ويؤكد المناضلون الفرنسيون السابقون بشكل قاطع أن بن عمر كان يكتب خلال تلك الفترة مقالاته بنفسه. وسيوصل الكتابة لاحقاً في الفتنام وبعد عودته، إن انشغالاته بالعالم القروي والتي أبرزتها أنشطته، تتأكد من خلال مواضيع نصوصه الأولى التي تحتل فيها وصف الوضعية بالبادية مكانة أساسية: "إن الفلاحين المغاربة مفلسون تماماً أو يكادون، لقد أرغموا على إعطاء البذور كضريبة. العديد منهم اضطروا إلى بيع ماشيتهم لشراء الحبوب ب 3600 فرنك للقطار بعد أن كانوا قد باعوا قبل ثلاثة أشهر بثمن منخفض جداً. آخرون باعوا أراضيهم ب 1400 فرنك للهكتار (59)، كان يوجه أصعب الاتهام للإقامة العامة التي تنهض سياستها على إفلاس الفلاحين عوض مدهم بيد المساعدة( 60 ). لقد كانت الوضعية القروية تبدو الانشغال الوحيد لابن عمر .

كان العمال الفلاحيون من وجهة نظره الفئة الأكثر حرماناً داخل الطبقة العاملة المغربية: "كيفما كان الوقت وكيفما كان الوصل، تراهم يشتغلون ليل نهار، معفرين وصدورهم عارية مقابل أجر زهيد، ثلاثون فرنكاً في اليوم، فإذا كانت ثلاثون تعتبر قانونياً، رغم الوعود الرسمية للإقامة العامة، هي الحد الأدنى للأجر اليومي للعامل الفلاحي، فإذا هذا الأجر يمثل بالنسبة للمعمرين حداً أعلى لا يتجاوزونه قط بل بالعكس، إن عدداً مهماً منهم يفتقدون بواحدة نظام الغرامات" ( 61 ).

لماذا إذن كان يتم فرض الزيادة في أجور العمال الفلاحين؟ كان بن عمر يلاحظ أنه كلما كانت تطرح هذه القضية إلا وكانت تبرز معارضة عامة في الأوساط الاستعمارية. كانت هذه الأخيرة تعتبر أن " أجر العامل الفلاحي قد يكون حقاً مرتفعاً أكثر من ذلك بفضل الامتيازات العينية. ترى ما هي الامتيازات؟ أي مثلاً ذلك الكيلوغرام اليومي من القمح الذي يؤدي العمال ثمنه وقد أضيفت إليه الضريبة؟ أم هي الخضر التي تباع لهم في مكان العمل بنفس الثمن الغالي كما في السوق؟ وكذلك هو الشأن بالنسبة للقمح والبيض والدواجن" ( 62 )، في تلك " العدة من الحجج الاستعمارية، نجد: حق اللقط بعد الحصاد، النعناع بالمجان، إمكانية بناء كوخ دون كراء الأرض الخ..". ( 63 ).

في وصفه لمسلسل هذا التدهور الشامل، كان بن عمر يمزج بين ملاحظاته الشخصية المسجلة على الساحة والتحليل بصورة تعميمية: " في أحد أسواق نواحي الدار البيضاء اشترينا كسرة( 64 )، خبز وكأس شاي ب 60 فرنكاً، في

الوقت الذي ما زال فيه العامل الفلاحي يتقاضى 30 فرنكا في اليوم (65).

كان بن عمر غالبا ما يتوقف عند معاناة العالم القروي. وكانت عبارة ليل نهار تتكرر مثل لازمة لتبرز بصورة أفضل الامتداد الزمني لهذا البؤس القروي: " ليل نهار يشتغل العمال الفلاحيون تحت شمس محرقة، بصدر عار، معفرين بطبقة كثيفة من الغبار، ليست ثمة راحة باستثناء نصف ساعة عند الزوال ليتمكنوا من أكل كسرتي خبز جافتين" (66). لكن هذا الوصف اليومي كان يتطور أيضا ليأخذ شكل العبارات التقنية لمطالب الأجور. " إنهم يتقاضون أجرا زهيدا ما بين 30 و40 فرنكا عن كل يوم عمل. وأنا ألح على كلمة يوم عمل، إن العامل إذا مرض أو تغيب لسبب ما يخصم له أجره اليومي. 30 و40 فرنكا يوميا تكفي بالكاد لشراء الخبز وبضعة أكواب من الشاي. والعديد منهم لهم أقرباء يطعمونهم ويكسونهم ويداونونهم ولكن من بيالي بذلك. فالعامل وعائلته يستطيعان أن يقتاتا من الطبيعة مثل الدواب. كان امحمد بن عمر يوضح بعناية كيف أن هذه الظروف تزداد تدهورا خلال فصل الشتاء(67)، بشكل متكرر. "إنهم يشتغلون 14 ساعة في اليوم دون أن يتقاضوا أجر الساعات الإضافية، العطلة المؤدى عنها غير موجودة بالنسبة لهذه الفئة من العمال، والعطلة الأسبوعية كذلك. بهذا الحد الأقصى للأجر الذي يتقاضاه العمال الفلاحيون، أي 40 فرنكا عليهم أن يوفرُوا المأكل والملبس لهم لعائلتهم التي غالبا ما تكون كثيرة العدد" (68).

كان العمال الفلاحيون يساهمون في ثروة البلاد بفضل تشبثهم الدائم بالأرض. " منذ طلوع الفجر تجدهم في الحقول بعضهم ينكش الأرض والبعض الآخر يسقي الأغراس المثمرة المتعددة، وآخرون يقودون الآلات ( 69)، ومع ذلك كانوا يتقاضون أسوأ الأجور في "العالم". لم تكن الإدارة تفعل شيئا لصالحهم، على العكس من ذلك، كانت السياسة الاستثمارية تسعى إلى تكريس هذا الإفقار. " لقد ألقى المقيم العام، مؤخرا، خطابا إلى المعمرين والفلاحين بثته الإذاعة، يقول فيه إن الحكومة مستعدة لتقديم يد العون لهم عن طريق منح قروض لشراء البذور أو للإزالة الأعشاب الضارة أو للحصاد إلخ. وهو شيء جميل. لكننا الآن في شهر نونبر وينبغي لعمليات الحرث أن تنتهي في 15 دجنبر. فماذا تنتظر الحكومة لتتفضل وتأتي لمساعدة آلاف الفلاحين الذين ينتظرون بفارغ الصبر هذه المساعدة؟ لم يعط أي شيء بعد سوى الوعود تلو الوعود كما هي العادة. وإذا وقعت مجاعة في 1948 فستكون الإدارة هي المسؤولة" (70).

في كل مرة، كانت تثار مسألة رفع أجور العمال الفلاحين، كما كان يسجل بن عمر، كانت تلاحظ معارضة عامة وقوية للزرعة الاستثمارية. يرفع عملاء كبار المعمرين أصواتا راعدة، وتجاريهم الصحافة المخلصة لهم، وتعدد المناورات لدى الأوساط الرسمية ( 71)، هذا في الوقت الذي يغرق فيه الفقر الفلاحين المغاربة في حالة من البؤس الإنساني الأكيد. كان بن عمر الشبوعي يرى المعمرين وهم يحسنون باستمرار أرباحهم. فكانت هذه على سبيل المثال وضعية " الشركة المسيرة للسيد العربي والمراقبة من قبل سيركي" والتي ارتفعت أرباحها من 8.537.000 فرنك سنة 1945 إلى 6 ملايين و949 فرنكا في 1946.

أما الشركة العامة للمغرب فقد ارتفعت أرباحها من 4.409.0000 فرنك سنة 1945 إلى 8.093.000 سنة 1946، بينما ارتفع الرصيد الموجه إلى إعادة توظيف فوائض القيمة من مليون ونصف إلى 34 مليون فرنك. أما الشركة العقارية والفلاحية للمغرب، فارتفعت أرباحها سنة 1946 إلى 4.320.000 فرنك برأسمال قدره 10 ملايين بنسبة 43% (72).

كان امحمد بن عمر يفرد مكانة خاصة في تحاليله لممارسة المعمرين: "يقبل المعمرين منح قروض مالية لعمالهم، ولكن بفعل ظهير يرغم العامل الفلاحي الذي حصل على تسبيق مالي من مشغله على البقاء في خدمته إلى أن يرد نيونه التي يكون مجموعها في الغالب خياليا، وبإمكان معمر أن يذهب إلى المراقب أو إلى الشؤون الأهلية ليقول إن العامل (...) الذي يوجد في خدمته مدين له بمبلغ قدره (...) ودون حتى الاستماع إلى الشخص المتهم غالبا ما يحكم عليه بالحبس عدة شهور في المظمورة استنادا فقط إلى الكلام " المقدس للسيد المعمر" ( 73)، كان بن عمر يسجل الطابع المتغير للمعمرين والمرتبب بتقلبات الأرباح: " خلال موسم الحصاد بقصبة تادلة كان معمر والمنطقة يجدون أنفسهم متضايقين بتهديد جدي من قبل العمال الذين كانوا جميعا يريدون مغادرة الضيعات، ولأنهم لاحظوا الأجور من 40 إلى 60 فرنكا في اليوم، والآن وقد جمعت كل المحاصيل، أعيدت الأجور إلى 40 فرنكا عن كل يوم عمل" (74).

كان بن عمر ينهي تحليلاته بالتعبير عن مطالب دقيقة نسبيا كتحديد التعويض المالي في 80 فرنكا في اليوم (75)، " على الحكومة أن تتخذ إجراءات ملموسة عن طريق التوزيع الفوري للبذور ومنح قروض مالية مستعجلة لتسمح للفلاحين بشراء الدواب الضرورية للحدث" ( 76). كان بن عمر يرى على الخصوص أن الإدارة لا يمكنها أن

تستمر في التواطؤ مع المعمرين الكبار المتلهفين على الأرباح" ( 77). وينبغي الاسجابة لمطالب العمال الفلاحين الذين يريدون كذلك الحصول على الحق النقابي وإقرار نظام مفتشية الشغل ( 78). ومن بين الأساليب الأخرى لوضع حد للتعسفات " يجب الاعتراف بالحق النقابي للجميع دون استثناء" ( 79). وفي جميع الأحوال، فإن العمال كانوا حسب بن عمر قد بدأوا مسبقا في تنظيم أنفسهم من أجل النضال. وكان ينادي بانخراطهم في النقابات " أن تنتظموا وتتحذوا وتجيئوا لتعزيز صفوفنا داخل النقابات من رفاقكم في النضال. وكان ينادي بانخراطهم في النقابات " اتحدوا داخل النقابة لتنتزعوا حقوقكم" ( 80). بيدكم أنتم " أن تنتظموا وتتحذوا وتجيئوا لتعزيز صفوفنا داخل النقابات مع رفاقكم في النضال الذين لا يكونون في سبيل تكسير قيود عبوديتكم" ( 81).

في مارس 1948، انعقد المؤتمر الخامس للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب، وكان التقرير الأدبي المقدم من طرف هنري برودوم يعترف بالتذبذب الذي عرفه التنظيم. لكن يلاحظ أن ذلك لم يستمر: " بإمكاننا اليوم أن نقول إن كل نقابتنا تقريبا تعرف ارتفاع عدد منخرطيها" ( 82)، وكان يفصح مناضلي نقابة " فورس أو فريير force ouvrières الذين كانوا يقفون برأيه وراء هذا " العمل القذر لخلق الانشقاق" كما فصح دون تسميتهم أولئك الذين كانوا قد حاولوا، في خريبكة أو مراد إيفوت أو عبر الصحافة الوطنية، إنشاء أو التعبير عن فكرة نقابية مغربية، " أولئك الذين يبحثون عن بث الانشقاق من خلال الاستقلالية" كان هنري برودوم يوضح: " ينبغي أن لا ننسى أن بالعمل سنحصل على مطالبنا ولن يعطى لنا شيء بسهولة" وبالنسبة للمؤتمر المقبل، فإن هدفه المنشود هو الوصول إلى 100.000 منخرط، وكان ينهى عرضه بالتعبير عن الوفاء والتعلق بالاتحاد العام، بنقابتنا العظيمة والمجيدة الكونفدرالية العامة للشغل" ( 83)، وقد تمت ترجمة العرض من قبل الشيوعي امحمد بن عمر .

بعد فترة قصيرة من انعقاد مؤتمر مراكش، في ماي من سنة 1948، كان بن عمر يظهر كعضو في مكتب الاتحاد المحلي للنقابة بالبيضاء. فلماذا غادر تادلة والتحق بالبيضاء؟ الشهود لا يقدمون سوى تفسيرات محتملة: تضافر الحاجيات التنظيمية وضغوط الشرطة عليه. على كل حال، وفي ظرف وجيز نسبيا أصبحت مسؤولياته سياسية بالأساس

ارتبط اسم ابن عمر أولا بالعمل النقابي أكثر منه بالعمل السياسي. ومن وجهة النظر هاته، فإن مساره لا يختلف كثيرا عن التدرج العادي للمناضلين الشيوعيين المغاربة. فمسارات العديد من العمال توضح هذه الارتقاء البطيء انطلاقا من الأشياء الملموسة للحياة اليومية في اتجاه الانشغالات السياسية ( 84).

ويحكي علي يعنة أن قيادة الحزب الشيوعي المغربي كانت قد طلبت من بن عمر أن يأتي للاستقرار في الدار البيضاء. والحقيقة أنه جاء إليها كإطار نقابي ما دام قد كان في 1948 عضوا في الاتحاد المحلي بالدار البيضاء (85). بعد ذلك أصبحت مسؤولياته الرسمية ذات طبيعة سياسية .

ومما ينبغي توضيحه هنا هو أن الدار البيضاء وناحيتها كانتا تشكلان داخل الهيكل التنظيمي للحزب الشيوعي المغربي منطقة تنظيمية تضم مدينة البيضاء نفسها والمحمدية وسطات والجديدة وخريبكة، وعدا ذلك كان بن عمر في البداية أمين مكتب الحزب بمنطقة البيضاء مكلفا بالأحرى بشؤون خريبكة ( 86). وقد أشارت " إسوار" جريدة الحزب في عددها الصادر في 12 يونيو 1948 (87)، إلى طرده من خريبكة في أعقاب الدعم الذي كان قد ذهب لتقديمه لنضال منجمي المدينة: قادة نقابيون آخرون تم إبعادهم بهذه المناسبة، خصوصا ببيرارفي كاتب افتتاحيات جريدة " لومانيتي" (الإنسانية) وعضو الجمعية الوطنية الفرنسية، وكان عبد السلام بورقية الذي كان بدوره أمين الحزب بمنطقة البيضاء .

يتذكر علي يعنة الذي كان مرغما آنذاك على السرية، أنه في مع بن عمر يومين أو ثلاثة في مكان منعزل: وقد سجل لديه حسا قويا للنكته وطبعا متفائلا واحتقارا للمشاكل اليومية ( 88). إبراهيم السرفاتي هو الآخر عرفه شخصيا خلال هذه الفترة عند عودته من فرنسا في يوليو 1949 وكان هو نفسه معروفا داخل الحزب الشيوعي المغربي كإطار سابق في الشبيبة الشيوعية المغربية ( من 1944 إلى 1945) ومن خلال نضاله الحزبي في فرنسا (1945-1949)، وسرعان ما كلف السرفاتي بالاتصال المباشر بعي يعنة، الذي كان في السرية منذ 1948، مع مشاركته في الأنشطة النضالية للحزب الشيوعي المغربي بمنطقة البيضاء ( 89). كان بن عمر آنذاك أمينا مكلفا بتنظيم مكتب هذه الجهة إلى جانب أمينها العام إدريس العلوي الذي انتخب في المكتب السياسي للحزب في مؤتمره الثاني سنة 1948: وكان إدريس العلوي قائدا ديناميكيا للغاية وإطارا ذا قدرات عالية ومستقبل واع .

رغم نشاطه وتحمسه الكبير، كان بن عمر يبدو قليل الظهور في الأنشطة الرسمية الكبرى للحزب خلال هذا النصف

الثاني من سنة 1948، لم يكن دوره يبدو ذا أهمية كبيرة. كان يظهر على مستوى الأنشطة التي يمكن وصفها بالثانوية رغم أنها كانت حاسمة. مع ذلك تبرز مسألة ثابتة: كان بن عمر يكتب نسبيا بانتظام: كانت كتابته تبدو كأنها تعكس حياة الحزب ومختلف انشغالات الساعة. وهكذا كان يكتب للمطالبة بإطلاق سراح رفاقه ( محمد بن مبارك من تادلة، ودي مارتينو من البيضاء والمعتقلين بأسفي والمتابعين أمام المحاكم بتهمة توزيع منشور: " إن عهد فيشي ليس بعيدا، فاليوم مثل البارحة يعتقل ويسجن عدد كبير من الشرفاء لأنهم شيوعيون.. في أسفي عدد كبير من رفاقنا المناضلين المخلصين لحزبهم، مرميون في السجن لأنهم يرفضون أن يتنازلوا عن ولأهم مقابل مال يدفعه مأمورو إدارة رجعية. وهذه ظاهرة لا تعرفها أسفي وحدها بل جميع أنحاء المغرب حيث يدافع الشيوعيون في كل مكان ودون توقف عن المطالب المشروعة للعمال والفلاحين والخماسة ( 90)، وعن التطلعات الوطنية لبلادنا ( 91). في مكان آخر، كان بن عمر يكتب محذرا للمطالبة بالإفراج عن رفيقه عباس بن محمد المرعي في السجن لأنه شيوعي :

" يجب إطلاق سراحه فورا حتى تتمكن عائلته من حصاد حقلها... وإلى ذلك، فإن المصلحة الخاصة لهذه العائلة ليست وحدها المهدة لأن مثل هذه التعسفات والمضايقات التي تزداد في حق الفلاحين خلال موسم الحصاد من شأنها أن تؤثر على نجاح المحصول من أجل المصلحة العامة، ينبغي أن يتوقف ذلك ( 92).

إنها نصوص ذات حساسية شخصية ولكن هناك أيضا كتابات لغتها خشبية، أو رسائل رسمية للمنظمة: في بوليز 1948 وقع بن عمر باسم المكتب الجهوي للحزب الشيوعي المغربي إلى جانب " كاسطون دلماس" احتجاجا على الاعتقال التعسفي لاثنين من رفاقهم " الفلاحين" المسجونين لأنهم شيوعيون ( 93). وكذا احتجاجات رسمية كذلك التي وقعها علانية وبصورة مشتركة امحمد بن عمر و " كاسطون دلماس" باسم مكتب ناحية البيضاء " ضد تفتيش المكتب الرئيسي للحزب" و " للمطالبة بإلغاء متابعات قضائية ضد كاتب الحزب وإطلاق سراح المديوري" ومقالات قصيرة حول التسيير اليومي كذلك المقالة التي التمس فيها بن عمر مساندة " القراء الوطنيين والديموقراطيين" لمواجهة ارتفاع تكاليف طبع جريدة إسوار ( 94).

ولكن ثمة كذلك كتابات مشبعة باستمرار وبقوة هذه " النزعة الديموقراطية" التي حددها مؤرخو الحزب الشيوعي المغربي كعنصر أساسي في منهجه والتي تظهر واضحة بما فيه الكفاية لإثبات أن الكفاح السياسي والنقابي للشيوعيين المغاربة لتلك المرحلة لم يكن يرحب به من قبل جهاز الوطنيين المغاربة. فالنضال الشيوعي كان يظهر أنه يصطدم في الوقت ذاته بمعاداة الإقامة العامة ومعاداة الوطنيين .

لم تكن كتابات بن عمر تكشف فقط بشكل ملموس عن صورة مناضل يدافع عن الحريات، وينتفض ضد الظلم الاستعماري، بل كانت تزيح النقاب عن مقاربة أكثر حساسية لانشغالاته البدوية الأولى. ففي يونيو 1948 نشر بن عمر مقالا في " إسوار" عن العمل في قطاع زراعة المستنقعات : " كانت زراعة المستنقعات ذات مردودية كبيرة ومع ذلك كانت وضعية الفئات الأخرى من العمال الفلاحين .

هكذا يتقاضى العمال في نواحي الدار البيضاء التي توجد بها مساحات واسعة جدا لزراعة المستنقعات أجرا يوميا يتراوح ما بين 70 و90 فرنكا. ولتتمويه على هذه الأجور الزهيدة، لا يمكن حتى الدفع بحجة " الامتيازات" العينية الشهيرة، ما دام عمال مزارع المستنقعات لا يستفيدون منها في أغلب الأوقات .

النساء من جهتهن، لا يحصلن سوى على أربعين فرنكا يوميا، وهن عاملات كثيرات في زراعة المستنقعات. أما الأطفال، الذين لا يقع التردد في تشغيلهم رغم سنهم فتودى لهم مئة فرنقة في الأسبوع .

إنه أجر مجاعة، فالجميع يعلم أنه لا يمكن العيش ب 80 فرنكا في اليوم ما دام ثمن كسرة خبز بسيطة هو 25 فرنكا على الأقل. لكنها أيضا ظروف عمل صعبة جدا .

"يبدأ نهار العامل المغربي ابتداء من الساعة الخامسة صباحا لينتهي في الثامنة عند حلول الليل، مع توقف عن العمل لمدة ساعة تقريبا في الزوال لتناول الغداء، يضاف إلى ذلك نظام الغرامات الذي يتوج هؤلاء الرجال المرهقين مسبقا بالأجور الزهيدة. ولا ينسى بن عمر أن يستنتج خلاصات تطبيقية وعملية: " إن العاملين في زراعة المستنقعات يريدون وضع حد لهذه الوضعية. إنهم عازمون على النضال من أجل مساواة أجورهم مع أجور عمال قطاع البناء ومن أجل إلغاء نظام الغرامات واحترام مواقيت منتظمة للعمل والاعتراف بالحقوق النقابي". وبطبيعة الحال فإن حزب بن عمر الذي لم يتوقف أبدا عن التنديد بقوة بالمصير البئيس للعمال الفلاحين يقدم لهم دعمه الكامل (95).

إنها صحافة مناضلة، أو نضال يعبر عن نفسه من خلال أخبار صحفية. ويلاحظ لدى الكاتب انشغاله بما هو ملموس، وقربه من القضايا القروية بالمقارنة مع النصوص الأولى، كان امحمد بن عمر يبدو متمكنا أكثر من التحليل فيما يتعلق بنوعية العمل أو بإعادة إنتاج قوى العمل أو بفائض القيمة. إلخ ..

و إذا كان يكتب ويقوم على الخصوص بتحمل مسؤولية أنشطة تنظيمية ومتابعة قضايا جهته - وهي المهام اليومية لمسؤول جهوي - فإنه كان يظهر أكثر فأكثر كأحد الوجوه الشيوعية الرئيسية بمنطقة الدار البيضاء وكان يبدو أنه يظهر نسبيا خلال الأنشطة الرسمية للحزب في مجموع الأنشطة المركزية لهذا الأخير، لم يكن دوره مهما بحيث لا نعثر له على أثر حسب تقارير الاجتماعات الكبرى للحزب، كما هو الحال، بشكل غريب، خلال الندوة الجهوية للدار البيضاء في 11 و 12 دجنبر 1948 (96)، أو خلال اجتماع هيئات أخرى كاجتماع اللجنة المركزية في 21 و 22 غشت 1948 (97)، أو في نونبر 1948 (98)، وكذا في الندوة القانونية بهدف تنظيم المؤتمر الثاني للحزب (99). ما من شك أنه نظرا لكونه أحد ركائز التنظيم المادي لهذه الندوات، فإنه لم يكن يملك الوقت ليظهر من خلال إلقاء كلمة متميزة أو كتابة نص متميز .

في 30 أبريل 1949، ذكرت "إسوار" اسم محمد بن عمر بين أعضاء اللجنة المركزية الجديدة المنتخبة في 1949 إلى جانب جرمان عياش، بن مهدي محمد، بن محمد عبد الله، وكاسطون دلماس... ( 100).

وتبرز أخبار الأحزاب السياسية المغربية خلال هذه الفترة الحاسمة من الحماية، في وقت كان يشند فيه الكفاح الوطني، على الخصوص العلاقات النزاعية بين الشيوعيين والوطنيين المنتمين لحزب الاستقلال، وهكذا كان الشيوعيون يساندون دون تحفظ إضرابات 1948.

كان بن عمر يبدو في قلب الأحداث متجنبا باستمرار : " كل التقدميين الديموقراطيين" كانوا مدعويين من طرف الحزب الشيوعي " إلى تكثيف جهودهم" ( 101). وعليه، كان حزبه يقترح على كل من حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال اتخاذ مبادرة مشتركة.

حزب الشورى والاستقلال رد بالإيجاب ( 102)، بينما انفرد حزب الاستقلال بموقف متحفظ إلى أبعد الحدود، فالتغيير في نظره كان ينبغي التعبير عنه من فوق أي من قبل الخاصة (النخبة) وليس من قبل العامة ( الجماهير الشعبية العامة أو غير العاملة) التي كان ينتقدها. وقد هاجم الشيوعيون بقوة هذا الموقف وبسرعة انتبه الاستقلاليون إلى الضرر الذي جنوه على أنفسهم باتخاذهم لهذا الموقف داخل الحركة العمالية المغربية ( 103). مع ذلك، كانت هناك نقط تقارب واحتمالات تحالف قد بدأت في الظهور، وقد أدت المطالبة بالاستقلال التي رفعها الشيوعيون بدورهم في غشت 1946، واليد الممدودة إثر ذلك، إلى الحركة الوطنية، والتحويلات التي تمت داخل الاتحاد العام للنقابات المتحدة المنصوية تحت لوائه إلى الاندماج في الاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب. صحيح أن موقف الحزب من المركزية النقابية عرف بعض التقلبات. تمت مؤاخذه بالأخص على مراقبته من قبل أشخاص غير مسلمين من يهود أو مسيحيين. وقد هاجمت إلى ذلك " لاكسيون سانديكال" " لوبيون دي بوبول" جريدة حزب الاستقلال، مؤاخذه إياها على القيام بمساعدة غير مقصودة للجهاز الاستعماري وعلى تجاهل مقصود للمواقف الوطنية والوحدية للاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب ( 104).

وكان قد تم التساؤل حول ما إذا كان حزب الاستقلال قد تأثر ام لا بالمواجهة التي عرفتها تونس على الصعيد النقابي داخل الاتحاد العام للعمال التونسيين بين التوجه الوطني والتوجه الشيوعي ( 105). كان يبدو واضحا أن حزب الاستقلال لم يكن بإمكانه الاستمرار في ترك الحزب الشيوعي يمارس هيمنة داخل منظمة يمثل هذا الوزن. فقد جعلت إضرابات 1948 حزب الاستقلال يحس بأن الحركة النقابية كانت تفلت من يده، فطلب من منخرطيه التحاق جملة بالاتحاد العام للنقابات المتحدة للمغرب، وشرع قاداته في اتصالات مع الشيوعيين انطلاقا من 1948 بغاية تنسيق عملهم على الصعيد النقابي. لهذا ورغم اختلافها وراء مظهر موقف متحفظ، فإن مصلحة ثابتة حلت محل النقد اللاذع سابقا. حزب الاستقلال بدا وكأنه يهيء لانفتاح على الشيوعيين. وكان بإمكان "إسوار" إذن أن تستنتج من ذلك أنه "بفضل التفسيرات المتأنية لحزبنا أعطت الحملات ضد الاتحاد السوفياتي ثمارها واضطرت للتوقف، لم يعد أحدا يتجرأ في الوقت الحالي على الافتراء على حزبنا كما كانوا يفعلون في السابق" ( 106)، بل حصل تقارب بين ممارسات وبرامج الطرفين، إذ يمكن القول أن مواقف الشيوعيين تقدمت كثيرا بخصوص القضية الوطنية بينما تقدمت مواقف الوطنيين بشكل محسوس فيما يتعلق بالقضية الاجتماعية .

مع ذلك، كان التعبير يتواصل على الخلافات بين القوتين السياسيتين حول العديد من النقاط. وهكذا كان الحزب الشيوعي يعبر عن رفضه لانضمام المغرب إلى الحلف الأطلسي وللموقف الغامض لحزب الاستقلال بهذا



الخصوص. وكانت الخلافات تبدو مع ذلك وكأنها تخف منذ المرحلة السابقة لـ 1949. كان الحزبان ينزعان إلى تعاون عملي ويومي. وكانت وحدة العمل في جدول الأعمال داخل الاتحاد العام لل نقابات المتحدة للمغرب أكثر من أي وقت مضى. وقد تأكدت عمليا على المستوى المحلي بصورة أكثر مقارنة مع المستوى الوطني. اللقاءات بين كبار المسؤولين كانت تصاحبها اتصالات بين مناضلي القواعد المتبادلة. كان الشيوعيون يفضلون الاتصالات والحوار مع قواعد حزب الاستقلال. لكن رغم مضاعفة المبادرات الأكثر تنوعا منذ 1949، فإن الجبهة الوطنية التي كان يامل فيها الحزب الشيوعي لم تتحقق .

وسط هذا المد من الأحداث، كان امحمد بن عمر قد قدم إدانته ومنذ مدة طويلة للاستعمار. كان يشارك في أهم الأنشطة التي كان يقوم بها الحزب في هذا الاتجاه. كان العضو الوحيد في اللجنة المركزية الذي شارك في وفد الحزب المكون من إدريس العلوي، هنري بوني، عمران المالح، والذي التقى في نهاية شهر ماي وبداية يونيو 1949 بحزب الاستقلال ممثلا بـ " سي أحمد بلافريج" الأمين العام والمهدي بن بركة وعبد الجليل القباح وعبد الكريم بنجلون، في أعقاب هذا اللقاء تأسفت افتتاحية إدمون عمران المالح لرفض حزب الاستقلال اقتراحات شيوعية للقيام بأعمال مشتركة مسجلا ان الحزب الوطني كان مثقفا إلى حد كبير مع تحليل الحزب الشيوعي بشأن خطورة الوضعية السياسية (107).

كان من الواضح أن حزب الاستقلال لم يكن يرغب في تعاون وثيق أكثر من اللازم مع الحزب الشيوعي، معتبرا أن ذلك كان يهدد بفقدانه للدعم الخارجي وخاصة دعم الولايات المتحدة الأمريكية، لهذا اجتهد ليقتصر تعاونه معه على القطاع النقابي وحده. كان حزب الاستقلال يعي أكثر من أي كان ان الشيوعيين يسيطرون على النقابة، وفي الوقت ذاته ذاته كان منشغلا بتوسيع قاعدته والنجاح في إقامة جسر اتصال مع الحركة العمالية لكن مع الوقوف عند هذا الحد فقط.

في يونيو ويوليوز 1949، أصبحت لمحمد بن عمر انشغالات مرتبطة بالمدينة أكثر: كان يترك القضايا القروية مؤقتا للتشهير عبر " إسبوار " بفضيحة حرية أئمة الكراء في الأحياء الشعبية ( 108).

فتحت عنوان " 1500 فرنك ثمن سجن في حي للقصدير" كان بن عمر يكتب: عن الظهير الأخير حول الزيادة في أئمة الكراء لا يطبق مبدئيا في الأحياء الأوروبية فقط ولكن له انعكاسات كبيرة على المدن القديمة وإحياء القصدير .

نص هذا الظهير يبعث على الاعتقاد فعلا بأن أئمة الكراء في المدن القديمة لن تعرف ارتفاعا وننسى أن هناك حرية تامة في تحديد الأئمة في هذه الأحياء وأنه كلما تم إقرار زيادة رسمية بالنسبة للأحياء الأوروبية إلا وطبقت أوتوماتيكيا في المدن القديمة وأحياء القصدير. كمثال على ذلك حالة هذا العامل في مؤسسة كارنو: " أنا أظن منذ سنتين في درب الطلبة بالدار البيضاء رقم المنزل 30 كنت أؤدي في بداية السنة الماضية 350 فرنكا في الشهر ثمنا لكراء شقة واحدة وقد ارتفع هذا الثمن مرتين خلال هذه السنة، بحيث بلغ خلال المرة الأخيرة 1200 فرنك شهريا، وليس هذا فحسب فمنذ أسبوع، أبلغني المالك بزيادة جديدة قد ترفع ثمن الكراء إلى 1500 فرنك في الشهر وأوضح لي أنه في حال عدم قبولي فإنه قد يطردني فكما تعرفون، العدالة في هذا البلد موجودة لخدمة أصحاب النفوذ .

يكفي أن يلوح المالك ببضع أوراق من صنف ألف فرنك ليتم طرد المكثري من منزله هذه هي العواقب التي غالبا ما تخلفها حرية أئمة الكراء في المدن العتيقة .

نكتفي بهذا المثال من بين أمثلة عديدة لنبين أنه عكس ما يوحي به الظهير، فإن أئمة الكراء ليفرضوا على المكثريين أئمتهم كما يلحوا لهم ومن الواجب على السلطات البلدية وسلطات الإقامة العامة أن تضع حدا لهذه المهزلة. إن النضال ضد ارتفاع أئمة الكراء واجب على كل عامل ( 109).

في شتنبر 1949، وخلال عملية مهمة للدعاية والتحفيز قادها الحزب في الوسط القروي بناحية برشيد، عاد امحمد بن عمر إلى انشغالاته القروية. في أعقاب هذه العملية، اعتقل هو وإدريس العلوي بمكتب المراقب المدني ببرشيد إلى حيث كانا قد توجهنا للاحتجاج على اعتقال فلاحين أعضاء في الحزب أو متعاطفين معه ( 110)، وقد نقلت " إسبوار " خبر الحكم على مناضلي الحزب الهاشمي محمد وأحمد بن الطاهر وأحمد بن الطيبي بثلاثة أشهر سجنا وعلى من كان معهم بشهر واحد. وقد تمت محاكمة الفلاحين في جلسات مغلقة ودون دفاع .

وتشير تقارير هذه الفترة إلى أن بن عمر كان مصابا بسل خطير وكان مجبرا على متابعة علاج منتظم نتيجة عملية

استرواح صدري.

صادفت المحاكمة يوم السوق في برشيد. وكان الحزب قد قام نتيجة ذلك بتعبئة واسعة لمناضليه وبعملية تحفيز في الوسط القروي. وهو ما ترتب عنه طوال هذه المحاكمة مظاهرة كبيرة لفلاحي المنطقة. في الساحة الرئيسية لمدينة برشيد:

كانت التعبئة في ذروتها وقد احتج الحزب لدى الإقامة العامة والحكومة الفرنسية. كما أن لجنة الدفاع من حقوق الإنسان بقيادة بوفيو نائب الرئيس الفدرالي لعصبة حقوق الإنسان "احتجت بشدة" حسب لغة بيانها. ومن مختلف أنحاء المدينة جاءت وفود تطالب امحمد بن عمر رغم حالته الصحية المتدهورة وإدريس العلوي سلطات برشيد بالإستفادة من وضعية المعتقلين السياسيين ودخلا في إضراب عن الطعام وفي أعقاب حركة المقاومة هاته أفرجوا عن 10 إلى 16 فلاحا معتقلا.

كان امحمد بن عمر يبدو آنذاك مناضلا متمرسا، في كامل نضجه، نشيطا وعتصرا محوريا في مختلف مساعي الحزب الشيوعي بمنطقة الدار البيضاء التي كانت مركز توزيع حقيقيا للنشاط الشيوعي. هذه الصورة تؤكدنا ذكريات إبراهيم السرفاتي التي يحتفظ بها اليوم من لقائه مع بن عمر عند عودته من فترة دراسة بفرنسا في النصف الثاني من سنة 1949، حيث ترك لديه انطبعا جيدا، ورغم أنه لم يظهر له في مستوى مناضلين مثل إدريس العلوي، فقد كان يبدو له رجلا جديا، مخلصا، نشيطا وفي ذات الوقت متواضعا وله علاقات إنسانية جيدة .

في هذه الفترة كان بن عمر قد تجاوز كثيرا العقد الثالث من عمره. منذ آخر لقاء بينهما كان علي يعنة قد فقد كل اتصال مع ابن عمر لمدة سنة. اللقاء الجديد الذي جمعه به تم في 1949 بالرباط. كان امحمد بن عمر قد أصبح مسؤولا حزبيا دائما بهذه المدينة. انتقله إلى الرباط لا يمكن أن يفهم كمجرد تعيين جديد. فقد كان شيوعيون فرنسيون معارضون لشعار الاستقلال الوطني يشكلون التوجه الغالب في هذه المدينة، فأرسل إليها بن عمر لتعزيز صفوف المناضلين الشيوعيين، المغاربة وغيرهم، المدافعين عن مغرب مستقل. كانت مهمته تتمثل نوعا ما في المساهمة في مهمة مغربة المنظمة في العاصمة ( 112). هكذا يبدو الباعث على ذهاب بن عمر إلى الرباط باعثة سياسيا بالدرجة الأولى.

كان الحزب الشيوعي المغربي وإلى غاية 1948، يبدي تفاؤلا كبيرا بخصوص قدراته على التجذر وتوسيع نفوذه وصواب خطه السياسي، إلا أن اعترافا بالفشل بدأ يحل محل النزعة الانتصارية لفترة 1946-1948 ولم تعد حرب العمال تغذي نفسه بأية أو هام حول تطلعاته، إلى أن يصبح أول الأحزاب المغربية وأكثرها وطنية. في هذا الإطار سيجري تقديم تقارير للنقد الذاتي خلال الاجتماعات الثلاثة للجنة المركزية المنعقدة في 1948، على أن وثائق هذه المرحلة تبين أن المنظمة الشيوعية لم تكن تنظر إلى مشاكلها إلا من الزاوية التنظيمية وحدها. وفي 1948 شرع الحزب في إعادة دراسة وضعيته وأفاقه من زاوية مختلفة ليتبين له عدم أخذه الكافي بعين الاعتبار للخصوصيات الوطنية وللوسط الذي كان يمارس فيه نشاطه .

فاجتهد للحد من أهمية الأطر الأوروبيين دون إبعادهم نهائيا، وذلك دون شك نتيجة المبادئ المعادية للعنصرية المتقسمة في صفوفه. ولكن أيضا لأن عملية تغيير الأعضاء كانت تتم في ظروف مرضية نسبيا .

ومن تبقى من الأوروبيين كان يتراجع إلى الوراء أو يحتل مناصب ثانوية وقد تكرر هذا المسلسل، في دورة فبراير 1950 للجنة المركزية التي تم خلالها ترخيص الحزب لهنري لافارج ليتخلى عن مهامه كأمين للحزب مما مكنه من التفرغ وبشكل تام للمهام النقابية. أما " مازيلا" فقد أسندت له أمانة المال، وأصبح " ج، دلماس" أمينا مكلفا بتنظيم الحزب. قبل ذلك، وخلال الندوة القانونية بالدار البيضاء سنة 1949 كان ج. دلماس قد سبق واقترح على الحزب الانقلاب على توجهه السابق والقيام بإعادة نظر جدية في سياسته الوطنية، إلا أن المناضلين البيضوايين أدانوا التوجه الإصلاحى لنشاط هذه الجهة ( 113). وقد دعت الندوة الرفاق الأوروبيين إلى القيام باستئصال " مخلفات" الاستعمار والنزعة الأبوية. هذه المخلفات قد تكون في نظرها عائقا أمام تطور الحزب في المنطقة. لهذا وضع الشيوعيون في مقدمة عملهم " الصراع الايديولوجي من أجل معرفة وتطبيق الاتجاه السياسى الصحيح ذي البعد الوطنى للحزب" ( 114).

على الصعيد الدولي، التزم الحزب بعدم الاكتفاء بالتنديد بالامبريالية الأمريكية ولكنه هاجم كذلك النظام الاستعماري. وعلى الصعيد النقابي، تم التأكيد على حاجة الحركة العمالية إلى أن تربط أكثر فأكثر الصراعات المطلوبة بالكفاح الوطنى ضد التوجهات الإصلاحية، الاقتصادية والاستعمارية. كما أن الحزب عبر عن رفضه للسياسة الانتخابية

والنزعة الديمقراطية، وامتنع عن استخدام انتخابات مجلس الحكومة كوسيلة للعمل السياسي .

أصبح الحزب الشيوعي أكثر عزما وراдикаلية، ووظف نشاطا كبيرا في إعادة اتهامه لنظام الحماية، أعطى الأفضلية لانخراطات المغاربة في الحزب دون أن ينزع مع ذلك، إلى أن يصبح حزبا جماهيريا كبيرا، إلا أن إضعافه داخليا عن طريق الاعتقالات الكثيرة داخل صفوفه وعن طريق الصراع مع حزب الاستقلال داخل الاتحاد العام لل نقابات المتحدة للمغرب (115)، جعل قدرات الحزب على المبادرة وإمكانياته لتوسيع تواجه محدودة بشكل جدي .

إن سياق تصحيح الخط الحزبي يلقي الضوء بصورة أفضل على ذهاب امحمد بن عمر إلى الرباط. كان الأمر يتعلق في النزاعات الدائرة في الرباط بين الشيوعيين المغاربة المؤيدين للاستقلال وعدد كبير من الأوروبيين بتعزيز التيار الأول. لكنه قد يكون أيضا تعرض لضغوط الشرطة مرغمة إياه على تغيير مكان نشاطه، لهذا وجد ملجأ لدى لوسيت لوبي التي كان منزلها هو المقر المحلي للحزب في العاصمة الإدارية للبلاد، الموجود في قلب المدينة لعصرية رقم 38، شارع الجمهورية وهو شارع علال بن عبد الله حاليا، وقد استقر فيه إلى غاية ذهابه إلى الفيتنام .

هنا يبرز أمر ثانوي ربما يكون قليل الأهمية، وهو أن عمر غالبا ما يحصل غالب الظن على مساعدة مادية متواضعة دون أن يتلقى تعويضا منتظما. إذ يحدث فعلا في الكثير من الأحيان أن يكون هناك مداوم حزبي دون أن يتم مع ذلك منحه تعويضا منتظما .

تبدو هذه الفترة بالنسبة لابن عمر فترة تنقلات مستمرة وتقلبات ومهام مستعجلة، ولكنها فترة تحولات على أكثر من صعيد. مع ذلك، وبالنظر إلى مساره الشخصي العام، فإن هذه الفترة لم تكن سوى فترة انتقالية .

في منتصف نونبر 1949 قد إبراهيم السرفاتي، الذي ذهب للعمل في ورش الأبحاث المعدنية بالأطلس، استقالته لأنه كان يحس بالعزلة هناك. وبتوافق مع قيادة الحزب، نجح في الالتحاق مجددا بالعمل الحزبي في الدار البيضاء في نهاية فبراير 1950 وكلف آنذاك بتحمل المسؤولية السابقة لمحمد بن عمر في المكتب الجهوي للحزب الشيوعي المغربي بالدار البيضاء .

عبد الله العياشي أحد الزعماء الحاليين للحزب الذي يعتبر امتدادا للحزب الشيوعي المغربي وهو حزب التقدم والاشتراكية، تعرف فعلا على بن عمر في 1949 بالرباط، حيث كان يشتغل معلما في مدرسة جسوس الحرة، وكان قد اتصل به قبل أن يصبح عضوا في الحزب الشيوعي المغربي، كان العياشي في السابق مناضلا في صفوف حزب الاستقلال ويسير إحدى خلاياه واضطر إلى الانسحاب منه نتيجة خلافات عديدة ثم طرد بعد ذلك من مدرسة بلافريج.

كان بن عمر أول مناضل شيوعي مسؤول يتعرف عليه، حيث يمثل اللجنة المركزية بمنطقة الرباط ويعيش في ظروف صعبة سواء على المستوى الأمني أو على مستوى موارد العيش فبدأ يتردد عليه في إطار خلية كان قد ساهم في إنشائها.

"ذات مساء طلبت منه الحصول على بطاقة الحزب. ولم يكن على ما يبدو ينتظر مني أن أقوم بهذا المسعى. وكنا نلتقي كثيرا في هذا المنزل الذي يسكنه، لم يثر هذه المسألة خلال مدة طويلة. ثم قبيل ذهابه إلى الفيتنام أعطاني البطاقة وعينت في خلية تنظيمية بالمدينة، وقع ذلك ربما في أكتوبر 1950."

يتذكر عبد الله العياشي الدور النشط الذي لعبه مع بن عمر مهندس زراعي من المارتينيك، جاء إلى الرباط للقيام بتجارب على الشمندر السكري .

وكان يقدم لنا عرضا كمدخل إلى الماركسية، كما كانت هناك إسهامات بيداغوجية ونظرية لجرمان عياش وعبد العزيز بلال(115).

أمام هذه الشخصيات وشخصيات أخرى أيضا، كان امحمد بن عمر بعيدا كل البعد عن الظهور بمظهر تافه، فالعياشي يصفه كشخصية جادة، لامعة وذكية. لم يكن بالتأكيد رجلا ذا ثقافة جامعية، ولم يكن من طراز المثقف الذي يهيء بناء نظريا مجردا أوحى من النوع الذي يقوم بتحليل على مستوى المفاهيم. كانت ثقافته تبدو بالأحرى عملية تم اكتسابها من الساحة. كان ذا تعليم ثانوي متين وعصامي إلى حد ما، كان يستعمل تعليمه في نشاطه السياسي، ويتذكر العياشي أنه عندما تعرف عليه أسر لأصدقائه الحميين: " تعرفت مؤخرا على شيوعي من ذلك

النوع المثالي للعامل المثقف". لغته العربية كانت جيدة وفرنسيته كانت أجود. كان على اطلاع بما تعلمه المدرسة الأهلية الفرنسية المغربية في تلك الفترة. لم يكن ثرثارا لكنه كان يعرف كيف يعرض مشكلا سياسيا. كان من ذلك الطراز من المناضلين الذين ولدوا زعماء. وفي نفس الوقت، لم يكن من النوع الذي يجعل مناضلي القاعدة يقومون بمهام الإطار المسؤول كما يشير العياشي إلى هذونه الكبير " كثيرا ما كنت أستشيط غضبا فأسمعه وهو يقول لي برصانة: يا السي عبد الله اهدأ! كان صبورا، دؤوبا وأخويا وكانت له في اعتقادي خصال إنسان ذي قلب كبير" شارك العياشي مع بن عمر في العديد من الأنشطة الدعائية في إطار الكفاح من أجل الاستقلال فكثيرا ما كانا يخرجان معا بالليل لكتابة أوامر حزبية أو شعرات على الحيطان ولتوزيع المناشير لقد رأيت - يقول العياشي - إلى أي حد كان واثقا من نفسه وشجاعا، بعد اعتقال علي يعته في 1949-1950 لم يكن العياشي بعد عضوا في الحزب. كان تحت المراقبة. حدث ذلك في أواخر شهر رمضان حيث أخبره بن عمر بعملية وشبكة كان مشاركا فيها. ثم جاء يبحث عن ذاته ليلة. في البداية توجه إلى بورصة العمل، حيث تم طبع بيان المكتب السياسي للحزب حول اعتقال علي يعته. توجه ابن عمر ليلا رفقة أحد الشيوعيين الفرنسيين وأحد عمال السكك الحديدية اسمه فرنان، إلى مدينة فاس، حيث تم توزيع المنشور ثم عادوا وهم يوزعون البيان متوقفين عند كل التجمعات السكانية الموجودة في طريقهم كمكناس، الخميسات، تيفلت.. " أذكر أننا زرنا في تيفلت بن حمو وهو أحد مسؤولي حزب الاستقلال. كنت أظن أننا كشيوعيين لم نكن نستطيع أن نخاطب شخصا من حزب الاستقلال لكن بن عمر لم يكثر ذلك. وأصر على أن يسلمه المناشير وقد وزعها بن حمو، مررنا بالعديد من القرى بالليل لم يكن بها أحد ما زال إلى اليوم يتردد في أذني نباح الكلاب طوال الطريق إلى حين وصولنا إلى مدينة سلا. وقد تكررت مثل هذه العمليات عدة مرات .

التقى العياشي مجددا ببن عمر بضعة أيام قبل سفر هذا الأخير إلى آسيا. كان بن عمر قد أخبره بأن الهدف من وراء مهمته في الفتنام هو تأطير المغاربة الفارين من الجيش الاستعماري الفرنسي، وإنشاء فرقة عسكرية مغربية مقاتلة لكنه لم يكن يعرف الدور الحقيقي الذي كان ينتظره في الفيتنام والذي يبدو بلا جدال اليوم دورا كبيرا .

في الحقيقة ظلت المهمة سرية، فالعديد من الأطر سيعرفون بشكل مفاجيء التجربة الفيتنامية لابن عمر سنوات عديدة بعد عودته بل مدة طويلة عقب وفاته. بعض القادة الكبار فقط هم الذين كانوا على علم بالمهمة التي أوكلت إليه. كان الأمر يتعلق بالاستجابة لطلب الحزب الشيوعي الفيتنامي الذي كان يرغب في الحصول على إطار مغربي بإمكانه القيام بعمل سياسي في صفوف السجناء والجنود المغاربة في الفيتنام. وكان الشيوعيون الفيتناميون قد أخبروا رفاقهم المغاربة بأن العديد من الفارين قد التحقوا بصفوفهم فكانوا يقترحون تأطيرهم وإعطاءهم تكوينا سياسيا من طرف رفيق مغربي.

يشير علي يعته بهذا الخصوص إلى تاريخ دقيق " حصل ذلك على ما أذكر في شتنبر 1950 فقد زارني المحامي بوني في السجن ليعرض علي المسألة" ويعتبر بوني على الأرجح أول شيوعي فرنسي بالمغرب. هكذا كانت تسجله وثائق ومصالح الشرطة منذ 1932. كان مكلفا بالدفاع أمام العدالة على أعضاء الحزب خصوصا في مكناس. وهكذا كان مثلا محامي بوحميده ( 117 )، في الدار البيضاء، كما كان أيضا نائب كاتب نقابة جرادة التي كان كاتبها هو الوالي محمد إلى جانب لانو، هذا الأخير الذي سيطرد من المغرب إلى جانب فوشرو .

كل المؤشرات تدل على أن الطلب الفيتنامي تم إرساله عبر قناة الفرع الاستعماري للجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي الذي كانت له علاقة وثيقة ومستمرة مع قيادة الحزب الشيوعي المغربي .

الشيوعيون الفرنسيون كانوا مع ذلك أعضاء في الحكومة آنذاك إلى غاية 1947 (118). ويمكن أن نميز بين عدة مراحل في تطور موقفهم من الوضع في الهند الصينية .

ما بين 1944 و 1947 عرفت الوضعية عدة تغييرات، ففي مرحلة أولى كان الشيوعيون يؤيدون شن حرب على الفاشية في الشرق الأقصى، وكان موقفهم مساندة الفيتنام في أعلى مراكز السلطة لمشروع الاتحاد الفرنسي. كان هوشي منه نفسه قد وقع في 6 مارس 1946 نصا يؤكد أن الجمهورية الفرنسية تعترف بالفيتناميين كدولة حرة لها برلمانها وماليتها وجيشها داخل الاتحاد الفرنسي .

قد يكون من الممكن اعتبار التصور الشيوعي للاتحاد الفرنسي والنابع من الاستراتيجية الشاملة للحزب المعبر عنها في حوار أجراه "طوريز" مع التايمز في نونبر 1946، تصورا منسجما. هذا التصور لم يكن يظهر أنه يأخذ بعين الاعتبار انعكاسات الحرب الباردة التي كانت في طور الانتشار. فالطابع الشيوعي للحزب هو الذي كان يشغل بال السلطة، إلا أن عدة عوامل ستؤثر على مسار الأحداث، كالتقاليد الاستعمارية، ومعاداة الشيوعية، والتقليل من قدرة

## الشعب الفيتنامي على المقاومة .

كان الشيوعيون في الحكومة ولم يكن دستور 1949 في نظرهم غير مقبول. كانوا يقومون فعلا بفضح حرب الهند الصينية كحرب استعمارية إلا أن الانسحاب من الحكومة في 1947 بسبب القضية الفيتنامية وحدها، كان يبدو لهم خيار سيجعلهم على هامش انشغالات الرأي العام .

من 1945 إلى 1947 لم يكن الحزب الشيوعي الفرنسي يريد وضع حد للتضامن الحكومي حول النزاع الهند الصيني. لكن سير الأحداث سيفرض موقفاً آخر: من جهة توقيع معاهدة الحلف الأطلسي في يوليو 1947 ومن جهة أخرى انتصار الثورة الصينية التي قدمت دعماً للمقاومة الفيتنامية. ثم الحرب الكورية التي انتهت إلى التحويل .

الاعتراف بالجمهورية الديمقراطية الفيتنامية تم في يناير 1950 من قبل الصين أولاً ثم من قبل الاتحاد السوفياتي. وقد عبرت المعارضة الشيوعية عن موافقتها من خلال مقالات تهاجم الحكومة، لكنها غيرت من نبرتها في 1949. كان الشيوعيون الفرنسيون يؤيدون الاستقلال دون استبعاد الاتحاد الفرنسي بينما لم يعد الفيتناميون يعتبرون هذا الأخير مرجعاً لهم. وقد أرخ شهر فبراير من عام 1949 لتسارع مقاومة الحزب الشيوعي داخل الدولة المستعمرة، حيث أعطى موريس طورين إشارة الانطلاق لمعارضة أكثر راديكالية: "علينا البون أن نتحرك أكثر من السابق" فنظمت مظاهرات كبيرة في الشوارع، وتكثفت حركة تعبئة المنظمات النسائية ومنظمات الشباب في شكل وفود وعرائض، وسرعان ما اعتبرت هذه الأشكال من الاحتجاج غير كافية في ماي 1949. دعت افتتاحية جريدة الحزب إلى تدشين حملة ضد "الحرب القذرة". وفي نوفمبر 1949 تم شن حملة من طرف عمال موانئ مرسيليا ضد نظام الشغل بالمرودية وضد شن آليات حربية في اتجاه الهند الصينية، كما أثارت قضية هنري مارتين من جهتها اضطرابات واسعة (119).

في المحصلة، أبانت "الحركة من أجل السلام" وفقاً للتطور الذي سارت عليه من 1954 أن الانشغالات الأساسية للمناضلين الفرنسيين كانت تتركز على المشاكل الأوروبية وعلى العلاقات بين الشرق والغرب وبشكل مؤيد للاتحاد السوفياتي. يبدو أن الهدف الرئيسي كان هو إضعاف الامبريالية الأمريكية من خلال منع إعادة تسليح ألمانيا وبصورة عامة، كانت الحرب الهند الصينية تبدو كأنها أصبحت ذات أهمية ثانوية .

لهذا، عندما تبنى الحزب الشيوعي الفرنسي في 1952 مواقف أكثر تشدداً اتجاه الحكومة، لم يكن يتوفر على قاعدة لنشر أفكاره حول حرب الهند الصينية. فلم تكن هناك بالتالي حملة جماهيرية حقيقية ضد الحرب حملته المعادية للاستعمار لا يبدو أنها كانت أكثر الحملات أهمية، وما من شك في أن عدم وجود تقليد معاد للاستعمار لم يعمل لصالح تطور عمليات التضامن مع الشعب الفيتنامي. فقد جرت الأمور كما لو أن الحزب الشيوعي الفرنسي قد رفض القيام بأية تعبئة مهمة. كان الوضع مختلفاً كثيراً عن المناخ العام الذي أفرزته حركة الشيوعيين الفرنسيين في 1925 ضد حرب الريف. لم يكن يعني الشعب الفرنسي أن يؤثر على نهاية النزاع، فكان لا بد لعمل المقاتلين الفيتناميين أن يكون حاسماً.

قام بوني إذن بعرض مشكل الطلب الفيتنامي وتباحث مع علي يعقته حول إرسال رفيق لمهمة طويلة الأمد في الفيتنام (120)، فاختر امحمد بن عمر لأنه كان في السابق جندياً في الجيش الفرنسي وأبان عن قدرات عسكرية. فقد كان معروفاً من بين الرماة المهرة وكان لمشاركته كجندي في الحرب العالمية الثانية تأثير في اختياره. إضافة إلى ذلك، كان الأمر يتعلق بمناضل متمرس، من جهة أخرى كان طلب هوشي منه يلح على ضرورة الفعالية في العمل الدعائي. وكان امحمد بن عمر قد أبان أيضاً في الماضي عن خصال عسكرية .

ماذا كان يعني بالنسبة لشيوعي مغربي، مناضل متمرس الذهاب إلى الفتنم آنذاك في نهاية الأربعينات؟ ما هي الصور التي كانت تصل إلى المغرب عن الفتنم ومقاومة الفتنميين؟

في "إسوار" جريدة الحزب الشيوعي المغربي كان هناك العديد من المقالات التي تتناول الماركسية في آسيا. فلم يكن الفتنميين ولا الصينيين الذين نجحوا في هذا التلاقي بين الشيوعية والوطنية ليتركوا لشيوعيين المغاربة غير مكثرئين. فقد كان الاستشهاد يتم عن طيب خاطر في مختلف الكتابات، بأسماء موريس طوريز وأندري مارتى وحتى باسم جان جوريس .

وستظهر مرجعيات جديدة، آسيوية هذه المرة. إن الترحيب الذي خصت به المنظمة الشيوعية المغربية نضال الصينيين ثم الفتنميين يصدر إلى حد ما عن تحول المحور الأساسي للثقافة الماركسية بعد 1949 إلى المنطقة

الآسيوية، في الوقت الذي كان المحور متمركزا في السابق في المجال الثقافي الفرنسي. لقد أصبح من الآن فصاعدا، الارتكاز إلى ماوتسي تونغ وليوتشاو وهوشي منه، وقد خصصت جريدة الحزب مقالات عديدة للوضعية في آسيا ونشرت نصوصا نظرية لقادة صينيين حول المسألة الوطنية (121)، ونسجل في هذا النص المنشور في "إسبوار" إحالاته بالذات إلى الانتصارات العظيمة للصين على عهد ماوتسي تونغ وكأنها "ثمره لوحدة القوى الوطنية الصينية" (122) وهو نص يبين إلى جانب إحالات أخرى الأهمية المعطاة للنموذج الصيني في الثقافة السياسية الشابة للشيو عيين المغاربة آنذاك.

كانت الصين والفتنم تشكلان نموذجين مثاليين بالنسبة للمغاربة خصوصا أنهما كانتا تساهمان في التقريب بين مختلف مكونات الحركة الوطنية. وهكذا جدد الحزب الشيوعي المغربي دعوته إلى حزب الاستقلال من أجل تشكيل جبهة وطنية تستند من الآن فصاعدا على أمثلة حية وملموسة. وبدا أن باقي القوى السياسية، خصوصا حزب الاستقلال، اتخذت موقفا مؤيدا لذلك في أعقاب استيلاء الشيوعيين على السلطة في الصين سنة 1949.

إلا أن علاقات أكثر مباشرة تظهر بين قادة الثورة الفتنامية والزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي المقيم منذ فترة بالقاهرة آنذاك، كما تشهد على ذلك المراسلة التالية بينه وبين فام نكوك تشا :

"إلى صاحب السمو الأمير عبد الكريم .

كلفني الرئيس هوشي منه وحكومة الجمهورية الديمقراطية الفتنامية بإبلاغك تحياتهما الحارة وأطيب المتمنيات بمناسبة عودتكم إلى الأرض العربية. لقد تابع شعب الفتنم بحماس وإعجاب مقاومتكم للامبريالية الفرنسية منذ 1922. وكان يبدي تقديرا كبيرا لشجاعتكم ولروح تضحياتكم، وهو لا يشك في أن عودتكم ستندق ساعة التحرير بالنسبة لإخواننا المسلمين في إفريقيا الشمالية .

صاحب السمو،

إن حكومتنا وشعبنا عازمان على مواصلة الكفاح المسلح إلى غاية النصر من أجل تحرير الفتنم على الرغم من التفوق العسكري للعدو. هذا العدو الذي لا يمكننا منافسته لا في العدد ولا في العتاد. مع ذلك، فإن جل مناطق البلاد توجد تحت سيطرتنا والمدن الرئيسية فقط هي التي تقع تحت السيطرة الفرنسية .

إننا نؤمن بانتصارنا في النهاية، لأن شعبنا أنشأ جبهة متضامنة، موحدة ورائ حكومة هوشي منه، إن مقاومتنا هي نفسها مقاومتكم ونضالكم لا يختلف في شيء عن نضالنا، لهذا، فإن من شأن تضامن حركات التحرير الوطني في إطار الامبراطورية الفرنسية السابقة أن يضع حدا نهائيا للامبريالية الفرنسية .

صاحب السمو،

إن حكومة هوشي منه تلتزم منكم أن تفضلوا بممارسة سلطتكم الروحية الواسعة لدعوة جند إفريقيا الشمالية إلى رفض الذهاب إلى لفتنم، وملتزم منكم إلى جانب ذلك أن يقاطع عمال الموانئ السفن الفرنسية .

مع أطيب متمنيات الشعب الفتنامي بتحرير إفريقيا الشمالية، وبالنصر لشعبكم العظيم في حربه المقدسة ضد الامبريالية الفرنسية.

وتفضلوا صاحب السمو بقبول تحياتنا وتقديرنا الكامل" فان نكوك تشا(123).

كل شيء يشير إلى وجود مراسلة مستمرة بين القادة الفتناميين وعبد الكريم الخطابي .

وفي هذا السياق، طلب عبد الكريم من أشقائه المغاربة التضامن مع نضال شعوب الهند الصينية، كما يشهد على هذا النداء الذي وجهه إلى المغاربة من العاصمة المصرية :

"في مثل هذا اليوم من السنة الماضية، قاد الاستعماريون الفرنسيون جيشا مكونا من أبناء المغرب العربي لمحاربة حركة التحرير في الهند الصينية. وقد اعتبرت آنذاك أن الواجب القومي كان يملي علي توجيه نداء أوضح من خلاله النتيجة المشؤومة لعملهم وأذكرهم بأنه لا ديننا كمسلمين ولا عاداتنا كعرب تسمح لنا بأن ننصر الباطل على الحق،

أو أن ندعم مبادئ الظلم على مبادئ العدل .

واليوم وقد استفاقت الشعوب من سباتها وانتصبت للدفاع عن حقوقها، هاهي حكومة فرنسا مصرة ولا تزال على موقفها المناهض لحركة التحرر. هاهي فرنسا تجند كما بالأمس، جيشا مكونا من أبناء المغرب العربي وتعبئه لمحاربة شعب يقاوم من أجل حريته، لذلك من الضروري أن أوجه نداء إلى أبناء إفريقيا الشمالية، وفاء لقضية الحرية، نداء جديدا أذكركم فيه مرة أخرى بأن الاستعمار الفرنسي الذي أفقر شعبنا، والذي يستغل هذا الفقر لإجبار إخواننا على المشاركة في جيشه، لا يستحق من جانبنا كأشخاص وجماعات إلا الإحتقار والحدق .

إن واجبكم أيها الإخوة هو أن توفروا دمكم وأرواحكم، وأن تحفظوها إلى غاية اليوم الذي لن يكون فيه مخرج آخر سوى أن نهب دماغنا للدفاع عن حريتنا ولاسترجاع سيادتنا. إن انتصار الاستعمار، ولو في أقصى العالم، هو هزيمة لنا وقتل لقضيتنا وانتصار الحرية في أية بقعة من بقاع العالم، هو انتصار لنا وعلامة على قرب استقلالنا. فكونوا إذن مع بلدكم ولا تكونوا عليه. وإذا أجبرتم على التواجد في صفوف العدو، فاخاروا الموقف الذي يحفظ لكم قدر الإمكان كرامتكم وشرفكم، اختاروا جانب أولئك الذين يدافعون عن الحرية ويقدمون تضحيات للحصول على الاستقلال، إلى أن تتخلصوا انتم أنفسكم مما تعانونه من جراء الاستعمار وبهذا ترضون الله ووطنكم وتقدمون الدليل على وفائكم لماضيكم المجيد وللمستقبل الأمد الذي ينتظركم ...

أخوكم عبد الكريم الخطابي" ( 124).

ويبدو أنهم لم يفقوا عند تبادل النوايا الطيبة وعبارات المجاملة، بل إن بعض الوثائق المنشورة تشير إلى مهمة استخبارات قام بها أنصار عبد الكريم لفائدة الفييت منه ( 125).

كان طريق رحلة امحمد بن عمر مرسوما بدقة: من فرنسا إلى بولندا بعدها الاتحاد السوفياتي ثم الصين فالفتنام... وكان الحزب الشيوعي الفرنسي قد التزم بتسهيل عبور الهارب إلى الاتحاد السوفياتي .

وفي 1950، غادر المغرب بن عمر سرا في اتجاه فرنسا وعند وصوله إلى باريس استضافه زوجان من الشيوعيين الفرنسيين وقد كانا قبل مجيئه إليهما يتصوران المغاربيين كأشخاص بدائيين: كانا يشرحان له أمام مائدة الطعام كيف يستعمل السكين والشوكة. وكان بن عمر يشارك بمكر في هذه اللعبة. وكثيرا ما سيحكي لاحقا هذا المشهد وهو يغرق في الضحك. أبحر إلى "أنفرس" في بلجيكا على متن باخرة بولندية حيث بقي طوال سفره في مقصورة القبطان يأكل الشكلاطة حتى لا يضطر إل الذهاب للمرحاض سوى أقل ما يمكن من المرات لئلا يكشف أمره. وعند وصوله إلى بولندا وضعته المصالح الأمنية تحت المراقبة مدة 24 ساعة وقضى بعض الوقت في مستشفى اللجنة المركزية. كان يصف التدابير الأمنية الهائلة التي وضعتها السلطات البولندية عند كل طابق، حيث كان يجب الإدلاء برخصة المرور في جميع الأماكن، كانت البناية مطوقة تماما ويستحيل تقريبا التسرب إليها ولم يكن من الممكن دخولها. وقد حكى بن عمر عدة مرات هذه القصة وهو يعبر عن إعجابه وكانت كاميليا تنصت إليه دائما بكثير من الاندهاش.

في 21 نونبر 1990 بمناسبة ندوة حول " دو كول خلال هذا القرن " استمعت إلى تدخل لفيليب دوفيلبي حول الهند الصينية. وخلال فترة استراحة، أخبرني عندما كان يعمل في الوزارة الأولى سنة 1950 كملحق صحافي توصل ببرقية من سفارة فرنسا في موسكو. نص البرقية كان مقتضبا، في حوالي عشرين سطرا، كما أوضح لي. وهي موجودة اليوم في أحد أرشيفات وزارة الخارجية. كان السفير أو القائم بالأعمال يقول فيها، عن أحد زملائه وهو دبلوماسي انجليزي في العاصمة السوفياتية، كان قد قام بسفر عبر القطر من وارسو إلى موسكو، تعرف خلاله على شاب مغربي. وقد صرح له هذه الأخير أنه متوجه إلى موسكو، من أجل الالتحاق بالمناطق المحررة من الفتنام ليحارب فيها الاستعمار الفرنسي وليتلقن أصول الحرب الثورية. " وقد قلت مع نفسي، كما أسر لي دوفيلبي بهذه الأخبار لاحقا برسالة(126)، لكنه لم يكن يتذكر بالضبط تاريخ البرقية التي كان قد توصل بها .

من موسكو التحق بن عمر بالصين عبر القطر، وبعد ذلك بفترة قصيرة سيطر في الفتنام .

=====

(1) ألبير عياش: "المناضلون المغاربة لاتحاد النقابات المتحدة للمغرب" (1936-1955) دفاتر كريمامو، مجموعة الأبحاث حول المغرب العربي والشرق الأوسط، جامعة باريس الثامنة، ص. 84/68، دفاتر البحر الأبيض المتوسط نيس 1983.

(1 مكرر) نشير في جريدة "إسوار" إلى مقالات بين عمر الصادرة في أعداد: 119 (8 يونيو 1947)، 142 (15 نوفمبر 1947)، 144 (28 نوفمبر 1947)، 149 (3 يناير 1948)، 171 (5 يونيو 1948)، 223 (4 يونيو 1949)، 236 (17 شتنبر 1949)، 237 (24 شتنبر 1949)، 238 (1 أكتوبر 1949)، 239 (8 أكتوبر 1949)... كما نشير إلى نصوص بين عمر الصادرة في جريدة "لاكسيون سانديكال" أعداد 44 (15 ماي 1946)، 53 (1 أكتوبر 1946)، 72 (15 يوليوز 1947)، 73 (1 غشت 1947)، 74 (15 غشت 1947).

(2) مقال لألبير عياش مذكور سابق، ص 73، وقد اتضح في الواقع أنا لجملة الأخيرة غير دقيقة، فبدخوله إلى المغرب وبعد عدة مغامرات، ذهب ابن عمر إلى الجزائر للالتحاق بالمعارضة المغربية التي كانت مستقرة بها.  
(3) برودوح مسؤول نقابي للدار البيضاء من 1937 إلى 1948، كاتب مع اتحاد النقابات بالمغرب من 1943 إلى 1948، كاتب إداري في نفس الاتحاد من 1948 إلى 1952.

(4) يوروا (أ) قائد نقابي وشيوعي في المغرب .

(5) رسالة من ألبير عياش إلى المؤلف 1986/02/22.

(6) حسب روبير مونطاني، وهو أنتروبولوجي وصاحب النظرية المسماة "بالف"، فإن الجماعات السكانية بجبال الجنوب المغربية قد تكون أنواعا من الجمهوريات الأوليغارشية التي لا تعيش على انفراد لكنها تتحد لتشكل عسبا للوقاية، أي ما يعرف بـ"الف"، ولتشكل على الخصوص تحالفات حرب. هاته اللوف كانت تتقاسم فيما بينها الجبل، وذلك بأن تتواجه وتتوازن فيما بينها، ضامنة أمن الناحية ووجود القبيلة. أنظر روبير مونطاني في كتابه "البربر والمخزن في جنوب المغرب"، محاولة حول الحياة السياسية للبربر 8565 غير الرحل "باريس، ألكان، 1930، (ق16) 426 صفحة. (7) رسالة من جون لاكوثير إلى الكاتب بتاريخ 29 يناير 1986.

"(8) التاريخ الآني" لجون لاكوثير ضمن كتاب "التاريخ الجديد" تحت إشراف ج. لوكوف، ر. شارتي، ج. روفيل في موسوعات المعرفة العصرية... باريس، ص 270 وما يليها، أنظر كذلك بييرنورا في "عودة الحديث" ضمن كتاب ج. لوكوف و ب. نورا (تحت إشراف...) وكتاب "صنع التاريخ" الجزء الأول... قضايا جديدة" باريس، فوليو، كاليمار، 1974، ص 308/285 وكتاب ر. بارط "كتابة الحدث" في مجلة "كومينكاسيون" عدد 1968/12.

(9) رسالة جرمان عياش... ألبير عياش المشار إليها أعلاه والموجهة إلى الكاتب في 7 يوليوز 1986.

(10) رسالتنا إبراهيم السرفاتي من السجن إلى الكاتب بتاريخ 30 أبريل 1987، وبتاريخ ماي 1987.

وإبراهيم السرفاتي إطار سابق في الحزب الشيوعي المغربي وأحد القادة الرئيسيين للمعارضة المغربية الماركسية اللينينية التي رأت النور في نهاية الستينات وبداية السبعينات، سجن مدة طويلة وكان يوجد في المنفى بفرنسا نتيجة قرار ترحيل إداري.

(11) فيما يخص قضية ج. بوداريل، أنظر مؤلف بوداريل "سيرة ذاتية" دار النشر جالك بيرتوان، باريس 1991، 435 صفحة، س. بايل في كتابه "أسير المعسكر" 113: معسكر بوداريل "داربيران، 1991، 275 ص مع ملحقات، ج. ج. بوشرفي كتابه "مذكرات" دارفرنسا أمبيرو باريس، 260، 1991، ص. م. شارول في كتابه "قضية بوداريل"، منشورات روشي، باريس 1991، 234 ص، ملكية الرباني "قضية بوداريل"، بحث لنيل الأستاذية في التاريخ تحت إشراف السيد روبير بونو، جامعة باريس 7، أكتوبر 1992، 219 صفحة.

(12) ج. دوايون "الجنود البيض للعم هو، فيالفة في معسكر الفييت مينه" باريس، مارابو، سلسلة التاريخ 1973، 512 صفحة.

(13) جون لاكوثير، مصدر مذكور سابقا.



(14) نفس المصدر .

(15) أنظر على سبيل المثال مصطفى بوعزيز في "مدخل إلى دراسة الحركة الماركسية اللينينية المغربية 1979/1965".

بحث بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، باريس، تحن إشراف إمبوكولو، يونيو 1985، ص235.

(16) في كتيب الحالة المدنية لمحمد بن عمر نجد المعلومات التالية: ابن لحسن لحرش وهنية بنت الحاج المعطي، من مواليد أولاد مراح ( دائرة ابن احمد) في 3 غشت 1922، لكن العديد من الشهود يشككون في صحة هذه المعلومات، فبعد عودته إلى المغرب، ربما كانت هناك مصلحة ما في أن يغير على الأقل تاريخ ومكان ازدياده .

(17) بول باسكون (بتعاون مع كريكوري لازارفي) " القرى المنجمية بمنطقة خريبكة" عدد 14، 1960، ص 39، 58.

(18) كانت مجموع أراضي قبائل المنطقة قليلا ما تزرع" كان الرعاة يحتمون تحت خيام من السعف القصير، والأماكن المسماة خريبكة وبوانوار لم تكن تتميز سوى ببعض المنازل المبنية بالتراب حوض بئر وضريح... " انظر بول باسكون وج. لازارفي، نص مذكور سابقا ومنشور مجددا في العدد الخاص الذي صدر تحية لروح بول باسكون "30 سنة من علم الاجتماع بالمغرب" المجلة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب، عدد 155، 156، يناير 1986، ص160.

(19) تطوعنا في الجندية من أجل الخبز والقصعة. عن المكتب المركزي للسجلات الادارية العسكرية. رسالة من (كازيرن برنادوت، مدينة بو) إلى السيد ساعف(الكاتب): " ردا على رسالتكم المؤرخة في 10 يوليوز 1992، يشرفني أن أحيطكم علما بأنه لا يمكن التحقق من هوية السيد امحمد بن عمر لحرش في مكنتي فقط بواسطة المعلومات التي تم التوصل بها. بالفعل فالمعلومات الضرورية للوصول إلى ملف المعني بالأمر هي بالإضافة إلى الإسم العائلي والإسم الشخصي، تاريخ ومكان الازدياد أو الاحصاء، والنسب . "

(20) أ. مورافيا " الشيوشارا" بارسي، فلمايون، 1958.

(21) ماري أنطونيبيا ماشيوشي " ألفا سنة من السعادة" ، كراسي، كتاب الجيب، 1983.

(22) نص مخطوط لابن عمر سلم للكاتب من قبل كامي كامليا، زوجته(أنظر الفصل الأخير ).

(23) امحمد ابن عمر " كفوا عن مطاردة الديموقراطيين" جريدة " إسبوار" عدد 149 بتاريخ 3 يناير 1948.

(24) جريدة " لأكسيون سانديكال" عدد 5 مارس 1944.

(25) فؤاد بن الصديق " المواقف السياسية للحركة النقابية في المغرب الاستعماري، 1930-1956" أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في العلوم السياسية، جامعة باريس، نانطير، ص 486.

(26) حوار للكاتب مع عبد الله العياشي .

(27) شهادة.

(28) انظر الوصف الوارد في العدد 32 من جريدة "إسبوار" في 30 شتنبر 1945.

(29) حوار مع علي يعته .

" (30) إسبوار" عدد 32 المذكور .

(31) أنظر. ظابار " الحركة الوطنية المغربية، باريس 1947، ص 133.

" (32) إسبور" عدد 38 بتاريخ 11 نونبر 1945 أنظر شكيب أرسلان " مساهمة في دراسة تاريخ الحزب الشيوعي المغربي خلال الفترة الاستعمارية" بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة الحسن الثاني 1985 ص 122 وما يليها.

(33) ش.أ. جوليان " المغرب في مواجهة الامبرياليات ( 1956-1415 )" باريس، منشورات جون أفريك؟، ص197.

(34) انظر شكيب أرسلان، مصدر مذكور، ص236 وما يليها.

(35) نفسه.

(36) حوار مع عبد السلام بورقية .

" (37) إسبور" عدد144 بتاريخ29 نونبر1947.

(38) شكيب، مصدر مذكور، ص141 وما يليها و185 وما يليها.

(39) انظر أ، عياش " الحركة النقابية بالمغرب" الجزء الأول ( 1919-1942 ) باريس ، منشورات لارمطان (سلسلة حدود الحاضر) 1982 ص 59 والجزء الثاني: " المغربية 1943-1948 الدار البيضاء منشورات ولادة. 1990، 233ص، والجزء الثالث " نحو الاستقلال" 1949-1956 باريس، لارمطان (تاريخ وآفاق مستقبلية) ص : 1933، 255.

" (40) لأكسيون سانديكال" بتاريخ 15 دجنبر1946.

(41) نفسه.

(42) أ. عياش " المناضلون المغاربة" مقال مذكور، ص 73/12.

(43) نفسه " لأكسيون سانديكال" ع 5 بتاريخ 1 أكتوبر1946.

.. " (44) عدم سقي المنطقة لمدة سنة إلى سنتين، غسل الأرض بواسطة نشر مكثف لمياه شتوية خلال الأوقات التي يكون فيها الصبيب المهم للنهر يخفض مقدار الملح في الماء إلى درجة تقارب الصفر، وقد أكمل حرت عميق بالصيف هذه المعالجة، وساهم فضلا عن ذلك في مكافحة نبات العكرش، انظر: ب، برفيول في " معجزة السقي بالمغرب، النمو النموذجي لمنطقة تادل (1936-1985) ص 61.

(45) في ماي 1947 تم استبدال "طاليك" الذي استدعي من قبل المقيم العام إريك لابون لتعيينه مدير للداخلية ثم استبداله في دائرة بني ملال ب إكور شفييل الذي كان قد أصبح بالمناسبة مديرا للمكتب .

(46) ب. برفيول، مؤلف مذكور ص 13-16.

(47) أ، عياش، مقال سابق، ص 72، انظر " لأكسيون سانديكال" عدد 53 بتاريخ 1 أكتوبر1946.

" (48) لأكسيون سانديكال" 15 دجنبر1946.

(49) نفسه

" (50) لأكسيون سانديكال" عدد73 بتاريخ 1 غشت 1947.

" (51) إسبوار " عدد 119 بتاريخ 8 يونيو 1947.

(52) بخصوص بعض المفردات المتعلقة بالتنظيم الإداري إبان الحماية مثل الشؤون الأهلية، المنطقة العسكرية المنطقة المدنية المراقبون، يشرح شارل أندري جوليان: " عهد بتنظيم البلاد بصورة كلية للجيش إلى غاية 1919، وقد جرى تعديل التنظيم في دجنبر 1923، كانت هناك من بعد منطقتان: الأولى مدنية وتضم مناطق الرباط والشاوية ومركزها الدار البيضاء، ومناطق الغرب ووجدة إلى جانب تفتيشيات مازاكان وأسفي وموكادور، والثانية عسكرية وتضم مناطق فاس بما فيها تازة، مكناس ومراكش. وكان رؤساء المناطق ضباط سامون يساعدهم ضباط مخابرات كان ضباط الشؤون الأهلية مكلفين بمراقبة وتكوين الإدارات ( الأهلية). وفي المنطقة المدنية، كان هذا الدور موكولا إلى المراقبين.. أنظر " المغرب في مواجهة الامبرياليات 1415-1956 باريس منشورات جون أفريك، 1978، ص 110 لمخزني رجل سلطة مساعد .

" (53) إسبوار " عدد 119 بتاريخ 8 يونيو 1947.

(54) نفسه.

" (55) لأكسيون سانديكال " عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947.

(56) نفسه.

(57) حوار مع علي يعنة، الأمين العام لحزب التقدم والاشتراكية، الحزب الشيوعي سابقا .

(58) حوار مع أ. عياش . ( 59 ) " إسبوار " عدد 152 بتاريخ 15 نونبر 1947.

(60) نفسه.

" (61) إسبوار " عدد 144.

(62) نفسه.

(63) نفسه.

(64) كسرة: قطعة خبز .

" (65) إسبوار " عدد 144.

" (66) لأكسيون سانديكال " عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947.

(67) نفسه.

" (68) لأكسيون سانديكال " عدد 73 بتاريخ غشن 1947 . (69) نفسه.

" (70) إسبوار " عدد 142 بتاريخ 15 يوليوز 1947.

" (71) إسبوار " عدد 144.

(72) نفسه.

" (73) لأكسيون سانديكال " عدد 72 بتاريخ 15 يوليوز 1947.

- "(74) لاكسيون سانديكال" عدد74.
- "(75) لاكسيون سانديكال" عدد73
- "(76) إسوار" عدد142.
- "(77) إسوار" عدد144.
- (78) نفسه.
- "(79) لاكسيون سانديكال" عدد74.
- "(80) لاكسيون سانديكال" عدد73.
- (81) نفسه.
- "(82) لاكسيون سانديكال" فاتح أبريل 1948.
- (83) نفسه.
- (84)أ.شكيب مصدر مذكور، ص 197 وما بعدها.
- (85)أ. عياش، مقال مذكور، ص 72 وكذا إبراهيم السرفاتي ورسالة مذكورة .
- (86) حوار مع علي يعنة ورسالة السرفاتي المذكورة .
- "(87) إسوار" عدد172 بتاريخ 12 يونيو1948.
- (88) حوار مع علي يعنة.
- (89) رسالة أ. السرفاتي المذكورة.
- (90) خماس؟، فلاح فقير لأرض له ويعيش إلى حد ما وضعية رق .
- "(91) إسوار" عدد149 بتاريخ 3يناير1948.
- "(92) إسوار" عدد171 بتاريخ 5يونيو1948.
- "(93) إسوار" عدد178 بتاريخ 24يوليوز1948.
- (94) نفسه.
- "(95) إسوار" عدد174 بتاريخ 26يونيو1948.
- "(96) إسوار" عدد199 بتاريخ 18دجنبر1948.
- "(97) إسوار" عدد183 بتاريخ 28 غشت1948.
- "(98) إسوار" عدد193 بتاريخ 6نونبر1948.

" (99) إسبوار " عدد216 بتاريخ 16 أبريل 1949.

" (100) إسبوار " عدد218 بتاريخ 30 أبريل 1949.

" (101) إسبوار " عدد172 بتاريخ 12 يونيو 1948.

(102) أنظر أ. شكيب، مصدر مذكور، ص 213 وما بعدها.

(103) نفسه ص 234 وما بعدها.

(104) نفسه.

(105) نفسه 257 وما بعدها.

" (106) إسبوار " عدد207 بتاريخ 12 فبراير 1949.

(107) في "إسبوار" عدد 207 بتاريخ 12 فبراير 1949 كان قد كتب إدمون عمران المالح: " في ظل هذه الظروف لماذا الاعتراض لمدة أطول عن خلق جبهة مشتركة وفقا للإرادة العميقة لشعبنا؟ هل لأننا لسنا بعد مقتنعين بفائدة هذا العمل؟ ربما سيكون ذلك عدم استجابة منا لدروس التاريخ والأحداث السياسية الحالية، فمن يجرؤ على الإصرار على أن الإنتصارات العظيمة للصين بقيادة "ماوتسي تونغ" ليس ثمرة اتحاد القوى الوطنية الصينية؟ من الذي لا يرى أن شعوب دول الديمقراطية الشعبية لم تكن لتستطيع التخلص من القيد الامبريالي لو لم تكن قد حققت اتحادها حول الطبقة العاملة، ولو لم تكن قد وطدت علاقات صداقتها مع الاتحاد السوفياتي. وغير بعيد عنا، من هو المغربي الذي لا يصفق لوحدة العمل الذي يتحقق بين مختلف الأحزاب الوطنية بتونس والجزائر حول المشكل الأساسي للدفاع عن السلم .

" (108) لأكسيون سانديكال" العددان 118 و119 الصادران في يونيو ويوليوز 1949.

(109) نفسه.

" (110) إسبوار " عدد 236 بتاريخ 7 شتنبر 1949 وعدد237 بتاريخ 14 شتنبر 1949.

" (111) إسبوار " عدد238 بتاريخ 1 اكتوبر 1949 وعدد238 بتاريخ 8 أكتوبر 1949.

(112) حوار مع علي يعنة .

(113) أ. شكيب، مصدر مذكور .

(114) نفسه.

(115) نفسه.

(116) حوار مع ع. العياشي .

(117) نفسه.

(118) حول هذه الجوانب انظر أ. بابوني "الحزب الشيوعي الفرنسي" دار النشر جون ديدي، باريس، 1969، ج، فوفى تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي " الجزء 1-2، باريس، فايار، 1965، مؤلف جماعي "تاريخ الحزب الشيوعي الفرنسي" منشورات سوسيال باريس 1964.

(119) قضية هنري مارتان، باريس، كاليفارنيا 1953 . (120) حوار مع علي يعنة .

(121) نسجل في "إسبوار" عدد 220 بتاريخ 14 ماي 1949، نشر مقال حول " الحياة المذهلة" ل "تشوطي"، قائد الجيش الشعبي الصيني .

كما نشرت "إسبوار" عدد 222 بتاريخ 28 ماي 1949 نصا لليوتشاو شي بعنوان " النزعة الوطنية والنزعة الأممية" ولنفس الزعيم نص " هكذا فقط يمكننا أن نحرر وطننا" في "إسبوار" عدد 230 بتاريخ 6 غشت 1949 . ويتضمن نفس العدد معلومة مؤداها أن المكتب السياسي اجتمع في 29 يوليوز 1949 . ودعا جميع خلايا و فرق الحزب إلى أن يضعوا في جدول أعمال الاجتماع القادم دراسة المقال المتميز للرفيق ماوتسي تونغ الصادر في العدد 231 بتاريخ 5 يونيو 1947 تحت عنوان " الدكتاتورية والديموقراطية ."

(122) أنظر أيضا في الصحافة ذات النزعة الوطنية خصوصا "العلم" مقالات حول "تطور الحركة الشعبية في الصين"، "العلم" الصادر بتاريخ 13، 14، 15، 16، 20، 22، و 26 يوليوز 1949.

(123) رسالة من بام نكوتشا إلى عبد الكريم الخطابي ذكرها محمد أمزيان في كتابه " عبد الكريم الخطابي ودوره في لجنة تحرير المغرب العربي" جامعة بغداد، 1988، ص 132/133.

(124) نداء عبد الكريم الخطابي إلى شعوب المغرب العربي بتاريخ 4 أبريل 1949 مصدر مذكور، ص 134/35.

(125) نفسه.

(126) رسالة من ف. دوفيلبي إلى الكاتب بتاريخ 5 غشت 1992.